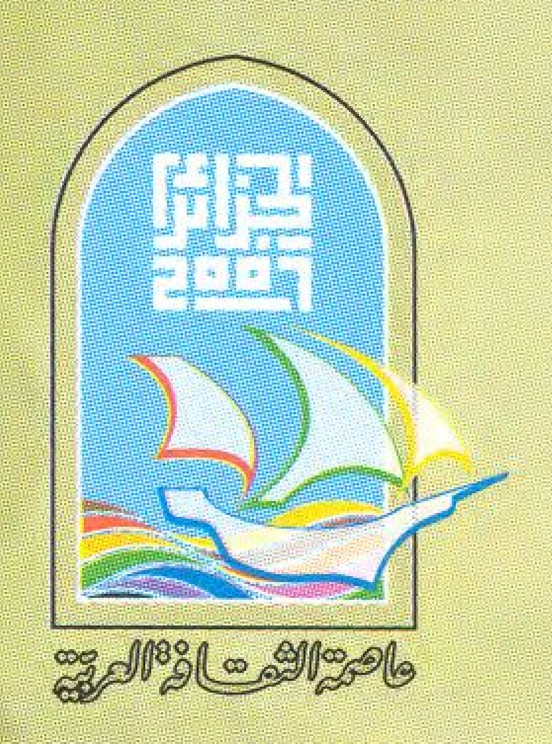
البراءة المسلوبة

مجزرة 20 أوت 1955
بملعب سكيكدة

رواية فاطمة سعدي

ترجمة : عبد الرحمان شريط



دار النشر أنوثة

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

البراءة المسلوبة

الطبعة الثانية 2007

دار النشر أنوثة

ص.ب 323 ساحة أول ماي - الجزائر
هاتف : 66 55 68 21 213
إيميل : ounoutha@yahoo.com
ounoutha@hotmail.fr





إنجاز مجلة أنوثة

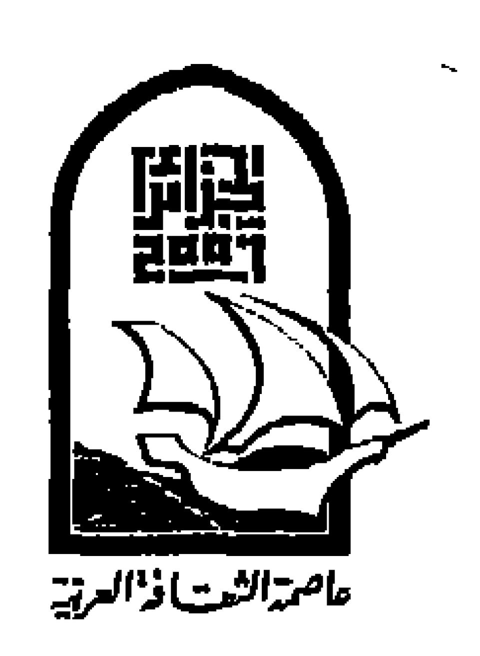
رقم الإيداع القانوني : 2006-3459
ردمك : 9961-9555-1-X

رواية فطيمة سعدي

ترجمة : د.عبد الرحمن شريط

البراءة المسلوبة

مجزرة 20 أوت 1955 بملعب سكيكدة



كلمة الناشر

السيدة فطيمة سعدي المناضلة والطبيبة والمنتخبة هي كاتبة هذه الرواية "الطفولة المسلوبة" المترجمة عن اللغة الفرنسية «L'Innocence confisquée» والذي نشرته مؤسسة أنوثة بمناسبة سنة الجزائر في فرنسا.

السيدة سعدي في هذا الكتاب، تكشف معاناة الشعب الجزائري في سكيكدة، في أحداث 20 أوت 1955، التي تصفها بدقة متناهية وكأنها إرشيفا موثقا، وتسردها بأسلوب شيق وكأنها روائية منذ نعومة أظافرها.

دقة تناول الأحداث التاريخية المعاشة، وصدق رواية معاناة الشعب الجزائري من خلال طفلة بريئة، واستعادة الوقائع بمسؤولية المناضلة، عناصر أساسية تمتعت بها السيدة فطيمة سعدي، وإليها يعود القسط الأكبر في اختيار اللجنة المشرفة على الكتاب بوزارة الثقافة، ترجمة الرواية إلى العربية بمناسبة الجزائر عاصمة للثقافة العربية، وأنا جد سعيدة لأن ذلك سيعطي فرصة لقراء العربية في أن يتعرفوا على طبيبة محترفة تكتب عن حرب التحرير الجزائرية في منطقة عزيزة علينا، وكأنها روائية محترفة، ترسم الأحداث بدقة نادرة دون أي إهمال للبعد الثقافي والتاريخي وحتى السياسي.. إمرأة كتبت في صمت مثلما ناضلت في صمت مما يضيف إلى بساطتها وحبها لعملها بعدا إنسانيا آخر.

إنه ليشرفني، وأنا المسؤولة على دار نشر أنوثة، أن أقوم بنشر هذا الكتاب للمرة الثانية وباللغة الوطنية. ومزيدا سيدتي من العمل المبدع.

عن دار أنوثة

مسؤولة النشر نفيسة لحرش

الإهداء:

إلى أبوي

إلى أبنائي

إلى خالي سي محمد

المقدمة

أطلعكم في هذا الكتاب، على تجربتي سواء كانت في ظروف جميلة وسعيدة أو في ظروف صعبة وجد قاسية كتلك التي عايشتها في ملعب سكيكدة .

كل الشهادات التي أوردتها في هذا الكتاب، تجيب عما تختمه على الذاكرة من واجبات. إنها حياة بنت صغيرة أثناء الاحتلال الفرنسي، تروي حقائق دون غرور.

ورغم المآسي التي طبعت الحرب التحريرية فقد تكونت علاقات قوية جدا بين أحد ممثلي النظام الاستعماري وبنت صغيرة من الأهالي، كل واحد منهما يبحث عن علاقة ضاعت.. علاقات قضى عليها الدهر "حنان أب لابنته وحنان بنت صغيرة لأبيها، وقد مات الاثنان".

هذا الحنان تجاوز بسموه حمام الدم، ولم يقطف من كل هذه الفاجعة الرهيبة إلا أنبل وأشرف ما في الإنسان.

« L'Innocence confisquée »
البراءة المسلوبة

التقديم المترجم من اللغة الفرنسية

بعد مضي أربعين سنة على الإستقلال، وجدتني أتساءل، كم تغير اليوم وجه الجزائر الإجتماعي! كم انحطت القيم الأخلاقية!
تحت تأثير الصحن المقعر نحن نسعى إلى التكيف مع نموذج قدمته لنا العولمة. عولمة تلقننا بطريقة جد بسيطة نوعا من الحياة الرديئة وتبعدنا أكثر فأكثر عن مبادئ الماضي. هذه المبادئ القائمة على الكرم والتضامن بين أناس فقراء ومن معتقدات مختلفة..
هذا ما يحاول هذا الكتاب الجميل أن يثيره من اعترافات، ويوقظه في نفوسنا من ذكريات حزينة أو جميلة عاشتها طفلة كانت شاهدا في لحظة بسيطة أو لحظة مشحونة بالأحاسيس، كتابتها الإستنطاقية تعبر عن ذكاء ويقظة تختانا، من ناحية، على طرح التساؤلات لفهم كل حدث ساهم في نسج تاريخنا، ومن ناحية أخرى تذكرنا بقيمنا الأصيلة التي كانت الإسمنت الذي وحد مجتمعنا في وجه الغزاة المستعمرين .
إن القراءة الرائعة لقصص ذات نفس صريح تضيف إلينا انتعاشا وبراءة اندثرت اليوم بسبب الجري وراء النجاح المادي أكثر من الرغبة في الاستمتاع بعلاقات بريئة، هذه الحالة النفسية انتشرت بسرعة واستهدفت في طريقها أبسط العلاقات البشرية، لقد كان أجدادنا وآباؤنا سعداء بالقليل من الإمكانيات، وكان الود يجمع بين الإخوة والأقارب، والاحترام يرفرف بين الناس، فيجعلهم يتعاطفون ويتغلبون على مشاكلهم.

وهذه البنت الصغيرة المنتمية لوسط بسيط عاشت جيدا طفولتها وهي محاطة بعواطف عائلتها وجيرانها الذين يتقاسمون كل شيء. وهاهي قد تطورت في محيطها وأدركت معنى الحوادث بفضل حب اطلاعها على الأشياء ونباهتها، إلى أن اصطدمت بالمحتل المسيطر على المدرسة وبعد ذلك على الشارع في زمن الثورة .

في هذا الظرف بالذات أصيبت طيبتها وعبقريتها بهزة: فنضجت في لحظة واحدة بصدمة تسمى 20 أوت 1955، صدمتها أمام التعذيب والبطش الوحشي الذي ساد الحوادث. وفي هذا اليوم بالذات سلب منها المحتل وبعنف غير إنساني براءتها.

أتمنى أن يكتشف شبابنا هذا "المؤلف" السيرة الذاتية، هذا الشباب الذي خجل دائما من تاريخنا، وكأنه يطلع على تاريخ عادي دون أن يحيطه بعواطفه وتفهمه المرجو من آباءهم.

هذا الكتاب بفضل عذوبته وعفويته وأسلوب كاتبته المتحدي، يمكن أن يعينهم على التشبع بالأصول والتعمق في الماضي من أجل فهم أحسن للحاضر حتى لا يصبح بلدنا الجميل والكبير في مهب الريح، أو مخلوقا ذا أرجل من طين.

ج. بلفنداس

الفصل الأول

كلي هذه!

آكل الورقة..؟ مستحيل إنها مفاجأة كبيرة. لم أرها ولم أسمع بها من قبل..

ناولني أبي قطعة من الورق بيده اليمنى وكان يحركها بسرعة لإفهامي أن هذا الأمر واجب تنفيذه في الحين.

استجبت له وأخذت في مضغ الورق بسرعة، لأنني أحسست أن هناك خطرا قادما.

وفعلا، فاجأنا شخصان "قبيحان" ارتميا على أبي " اعطنا المنشور..!" صاح أحدهما.

كان الرجل نحيفا بارز العظام عند اليدين ماضي العينين مما يضاعف من وحشيته. يشبه شارباه شاربي "هتلر"، أما شعره فكان رطبا ممشوطا بثلم في الوسط.

إلهي ما أقبحه..! إنه يشعرني بالرعب.

- عن ماذا تتحدثون..؟ قال والدي.

- المنشور: قلت لك!

الشخص الثاني يتكلم بحزم مع تقطيب حاجبيه. إنه منفعل ويحاول التهجم على أبي الذي يواصل إنكاره:

- عن أي منشور تتحدثون ؟

- لقد شوهدت وأنت توزعه.

- كلا لا أدري عما تتحدثون..!

- إما أن تعطيه لنا أو نرميك في الحفرة!

هكذا بدأ أحد الشخصين في التهديد والرسم بأصبعيه لتوضيح الشكل المستدير للحفرة. وسارع إلى تفتيش الأشياء وتقليب الجرائد الموجودة. "البصائر" و"المغرب العربي"..

ابتدأ يتلمس الأشياء الموجودة في محله الواقع بشارع "سانت أغسطين". حيث يوجد كل شيء. لوحات زيتية غير مشهورة ولكنها عزيزة على والدي. وبعض التحف الصغيرة والأثاث القديم الذي لا يقدر قيمته إلا العارفون..

هنا امتدت يد أحد "الشرطيين" إلى لوحة زيتية استخرجها من إطارها لعل الصدفة تكشف له الورقة التي يبحثان عنها.

ولكن بعد أن بعثرا وقلبا كل شيء رأسا على عقب انسحبا غاضبين مهددين.

أما أنا فقد لاحظت كل شيء في ركن مظلم من المحل حيث بقيت مختبئة عن أنظارهما.

تنفس أبي الصعداء بعد خروجهما. والتفت إلي كأنه يأسف على ما حدث. وأخذني بين ذراعيه وجعلني أبصق بسرعة الورقة التي احتفظت بها في فمي ثم طلب مني السماح.. فنظرت إليه مندهشة وخائفة.

قال لي: "لا تقلقي يا ابنتي الغالية".

قلت باشمئزاز:"لماذا حتمت علي أن أمضغ هذه الورقة..؟ هذا أمر ليس بالحسن".

فأجابني:" لا شيء يا بنيتي. ليس بالأمر الخطير.."

لكنني بقيت مشمئزة من تصرف الشرطيين. وغير مقتنعة بجواب أبي. فألححت عليه قائلة:

"أبي لماذا كان هؤلاء الأشخاص سيئين معك..؟"



"إنهم شرطيين غلطوا في شخصي"

"لماذا مزقوا اللوحة الزيتية؟

ولكنه بقي صامتا ثم ضمني إليه مرة أخرى وقال لي:

"إنهم اشتبهوا بي، لا ليس الأمر خطيرا، خذي واشتري لك شيئا من المثلجات".

إنه يعرف نقطة ضعفي، لذا سارعت في نسيان الحادث.

علمت بعد ذلك متأخرة أنه كان مناضلا في حزب الشعب الجزائري (الحزب الوطني).

كان والدي من المتعلمين القلائل في الحي. ولهذا كان كل شيء مكتوب يمر عبره: طلبات، عرائض مراسلات عائلية ولهذا أصبح شخصا مشبوها عند السلطات. إنه قوي كأحد الأتراك طويل القامة، عضلاته بارزة، يخشاه الناس لأنه قوي ويحسدونه لأنه إبن حاج ميسور.

كان هناك شخص في حينا يحمل إسم "بندير" ويعمل مبلّغاً بالمناداة في المدينة "براح"، وهو معروف أيضا بصفات كثيرة أخرى: بطل المصارعة يثور لأتفه سبب، قبيح المنطق ويصيح في وجه، يبرز للناس باستمرار عضلاته وصدره عندما يمر في الشارع.

ولأحيانا، يأتي لدكان أبي ليستفزه.. وخلاصة القول أن "البندير" هذا لا يتحمل أن يرى شخصا يضاهيه في القوة وشدة البأس.

كثيرا ما يتجول في الشارع وصدره عاري الجذع، وأما شعرات رأسه النادرة فكان يربطها بشريط.

كنت كثيرا ما أقضي وقتي في الدكان لأنني كنت صغيرة، وكنت أيضا أذهب لساعات قليلة إلى المدرسة لتعلم القرآن.

وفي يوم من الأيام حضرت هذا المشهد: دخل علينا "البنديـر" وتوجه إلى أبي قائلا: "يقال إنك قوي جدا ولكن أنا أقوى منك".

فرد عليه أبي: "مبروك عليك ولكن أتركني لحالي".

"أثبت لي أنك رجل قوي وتعال لنتعارك"

رد عليه أبي: " شريعة النبي معك"، وهو تعبير تقليدي يردده شخص عاقل يطلب السلام ويرفض كل عنف.

إلا أن "البنديـر" بقي متشنجا واقترب من والدي عاقداً أصابعه ودفعه إلى الوراء، فأفقده توازنه. عندئذ إحمر وجه أبي فأخذه من ذراعه ولواها وراء ظهره وبدأت المعركة كما في الأفلام الأمريكية.

تجمع سكان الحي الذين ضاقوا ذرعا من تبجحات ومزايدات "البنديـر"، فتحمسوا وتملكهم الإعجاب بما رأوا فأخذوا يرفعون أصواتهم لتحريض أبي على "البنديـر" أما أنا فبقيت مدهوشة إذ لم أر أبي من قبل يتعارك مع أحد.

وازداد الناس حماسا وصياحا كلما ازداد الضرب، وحاولت أن أمر بين الناس لأرى أفضل، ولم أستطع لأنهم كانوا كثراً وطوال قامة، لكني سمعتهم يصيحون:

- إعطه درسا لا ينساه إضرب بقوة ! إسحقه..!

خفت على أبي، فالبنديـر قوي جدا، وأنا لا زلت لم أر شيئا مما يجري، وأخيراً استطعت أن أتسلل بين أرجل الناس.. وعندها سمعت أبي يقول: "أنت الذي أردتها، والآن فلن تعد تقلق أحدا!!"

وشاهدت العجب..! لقد شاهدت "البنديـر" مطروحا على الأرض يحاول أن يقف بصعوبة والدم يسيل من أنفه والناس يعيرونه ويدفعونه وهو يبدو صغيرا ولكن شرار الحقد يتطاير من عينيه، وعزيمة الإنتقام من أبي بادية على وجهه.

أما أنا فكم كنت فخورة بأبي.

وأما أبي، فبعد شيء من البحث جاءني ليخفف عني.

ـ طالما حاولت أن لا ترين هذا المنظر، ولكنه كان دائما يحاول استفزازي.

الفصل الثاني

سنة 1950

كانت إحدى قريبات أمي تسكن في الغرفة الموجودة في آخر الرواق، إلا أنها كانت قد توفيت منذ مدة قصيرة وبقي بيتها مغلقا لا يدخله أحد.. وكنت أظن أنه سيبقى كذلك لسبب ديني أو لشيء من ذلك..

يوجد في هذه الغرفة طاولة كبيرة بيضاوية الشكل، صلبة الخشب، وبعض الكراسي. ولكن لكي يدخلها أحد لا بد أن يمر عبر رواقنا.

لاحظت بسرعة أن أشياء غريبة تحدث في هذا البيت، وحاولت مرارا أن أفهم ولكن أمي كانت تجبرني على النوم باكراً.

كنت أشك أن حركة ما تجري ليلا في هذه الغرفة الغريبة، وأحيانا كنت أنجح في التغلب على ترقبها وأبقى يقظة أتحسس هذه الخطى..

كنت أظل في فراشي نصف يقظة وأبدأ في تصور أشياء مزعجة.. ففي سكون الليل تحدث تلك الخطوات السريعة ضجة تصم أذني وترتعش لها فرائصي.. ويزداد قلبي خفقانا فأهتز خوفا كلما انغلق الباب بقوة.. وأعود إلى قصص جدتي حول "الأغوال" التي تأتي لتلتهم البنات غير المطيعات. فهل كنت اليوم خبيثة..؟

وبعد مرور عدد من الليالي فهمت أن القادمين هم من الرجال، ولكن لماذا يتخفون..؟ لماذا يأتون آخر الليل وفي أوقات متضاربة..؟ لماذا هم صامتون ويمشون بخطىً سريعة..؟ ولماذا يخرجون بخطوات أسرع..؟

كل هذه التساؤلات تبقيني ساهرة إلى آخر الليل ولا أجرؤ أن أبوح لوالدي بها.

إن الجو الغريب الذي يحيط بتلك الحركات ذهابا وإيابا يمنعني من السؤال عن هذا السر العظيم.. وهنالك أيضا النظرة القاسية التي تلقيها علي أمي، وإشارة إصبع أبي المرسومة على فمه كعلامة على السكوت، أشياء كلها لا تشجعني على البوح بتساؤلاتي..؟

كلما انفتح باب الغرفة ليفسح المجال بالدخول أو بإدخال الصواني، تفاجئني أصوات خفية وضربات على الطاولة. إنه السر الغريب الذي سيطر على طفولتي، فماذا تخبئ تلك الغرفة..؟

وبقي الحال كذلك إلى أن توفي والدي.

أثناء الحوادث، علمت من بعض جيراننا أن تلك الغرفة كانت تجرى بها إجتماعات الحركات الوطنية (المنظمة السرية، L.O.S).

رباه! كم من المشاهد العجيبة تصورتها! وكم من الغرائب حاولت استيضاحها! وكم من الصور المزعجة خطرت ببالي؟ لقد ذهبت بخيالي إلى الجن والأرواح قبل أن أفهم أن الأمر أهون من ذلك وأنهم أشخاص! ولكنني لم أتصور لحظة واحدة أنهم أشخاص اجتمعوا هنا للإعداد لثورة كثورتنا..!

الفصل الثالث

كان جدي لوالدي من أعيان المدينة حج إلى مكة أربع مرات وهو محافظ على الصلوات وعلى كل القواعد الدينية، لا يستهين بأية جزئية في حياته الدينية، وهو أيضا معروف بشدته، وبمخالطته للمثقفين والعلماء.

إن أبغض ما أبغضه هو أن نزوره في بيته، خاصة في الشتاء، لأن دوره لم تكن دافئة إلا قليلا، ماؤها شديد البرودة، والصلاة عنده عبادة مقدسة.. ولم يكن بإمكاننا زيارته إلا إذا احترمنا أداء الصلاة كما يرغب هو..

كان يجب أن نستفيق مع الفجر للقيام بها كما لو كان هو إمامنا أي أن على كل العائلة أن تقف وراءه صفا واحدا كبارا وصغارا رجالا ونساءً.

وكان علينا الوضوء بذلك الماء المتجمد، فكنا ونحن نقف وراءه، والفصل شتاء، نرتعش من شدة البرد ومن قلة النعاس الذي لا يفارق جفوننا.. وفي نهاية الصلاة كان يأمرنا بقراءة بعض السور من القرآن لتمجيد الخالق.

كنت أبلغ من العمر ستة سنوات، ولا أفهم جيدا ما يقال عن ذلك، ولكنني أشعر الآن أنني كنت متشبعة بالإسلام منذ نعومة أظافري.. لأن الدين الإسلامي هو الذي كان ينظم حياتنا اليومية ولا زال هو جوهر وجودنا. كما أن قواعده كانت دائما قانونا وليس لأحد الحق في اختراقها.

إن الذين يختارون تغيير دينهم كانوا يسمون عندنا ب"المطورنين" أي "المرتدين" وهذه الصفة كانت تلحق أكبر لعنة بصاحبها.

إن "المطورن" ومعناه باللغة الفرنسية "من يبدل لباسه"، ولكنها لم تكن تعني فقط تغيير الدين بل تخص أيضا " تغيير الهوية".
لقد كان الدين الإسلامي يشكل الإسمنت الذي جمع ووحد الشعب أثناء الحرب التحريرية.. والدين الإسلامي أيضا هو من علمنا التسامح والكرم وحسن الضيافة، وجعل من العائلة المسلمة شيئا مقدسا.

كنا مسلمون وليست لنا أي مشكلة هوية. وكنا نعيش بتواضع ونكتفي بالقليل مما يجعل حياتنا بسيطة للغاية. والنظام الذي طبع مجتمعنا هو الذي كرس المحافظة على تراثنا الثقافي بأشد ما يمكن أن يكون.

أكره أن أذهب في زيارة لجدي لأن النهار عنده بطيء وثقيل.. إنني أستيقظ عند الخامسة صباحا لأصلي، ثم أذهب إلى المدرسة الفرنسية من الساعة الثامنة إلى الحادية عشر، ومن الساعة الواحدة بعد الظهر إلى الساعة الرابعة والنصف.. ثُم بعد ذلك أنتقل إلى المدرسة العربية من الساعة الخامسة إلى الساعة السابعة مساء، يضاف لها يوم الأحد من الساعة الثامنة صباحا إلى منتصف النهار لتعلم القرآن فقط، كل ذلك من أجل تعلم اللغة العربية لأنها كانت شيئا مقدسا..؟.

عندما كنا نجتمع مع أهلنا في البيت، لم نكن ملزمين بالإستيقاظ مبكرا. أما جدي فإنه كان صارما إلى حد أنه كان يفضل أن نغيب عن دروس اللغة الفرنسية.

ومهما كان الأمر، فإن يومنا يبقى مرهقا.. وبالنسبة لي، فقد كانت العربية أوالفرنسية من آخر اهتماماتي، فما يهمني هو النوم وفقط.

الفصل الرابع

أرسلتني أمي إلى خالتي التي كانت تسكن على بعد مائة متر من منزلنا لأعود لها بالسوار الذي استعارته منها بمناسبة عرس أحد أقربائنا.

وعندما وصلت إلى دارها وجدت الباب مفتوحا على مصراعيه كما هو الحال عندنا تماما، ووجدت خالتي تفتل في الكسكس. وكما هي العادة عندنا سألتني خالتي عم جهزت أمي من طعام لغذاء اليوم والبارحة أيضا، مضيفة:

"هذا يسهل علي الأمر في تحضير طبيخي.. لا تنسي أن تخفي السوار كي لا يسرق منك في الطريق إلى داركم".

فوجدت الباب الخارجي مفتوحا كما هي العادة.. اليوم كل المخابز كانت مغلقة فهو يوم الإثنين، ولهذا فكل العائلات تحضر خبز الدار أو الكسرة.

تتألف الدار من طابقين، طابق أرضي وطابق آخر فوقه.. يحتوي الطابق الأرضي على حوش بنيت حوله غرف صغيرة تسكن في كل واحدة منها عائلة كبيرة.. كما تحتوي مرحاضا مشتركاً بدون كهرباء، وكذلك حوضا جماعيا به حنفية واحدة. وأما في الطابق العلوي الذي نسكنه نحن "ملاك الدار"، فيحتوي على غرفتين ومطبخ وغرفة للغسيل، وفي نهاية الدرج غرفة تسكنها عائلة من سبعة أطفال. وبجانبها غرفة أخرى ومطبخ حيث تعيش عائلة أخرى كبيرة العدد. والملاحظ أن الباب الخارجي لم يكن ليغلق بتاتا وليس له مفتاح يقفله.

النساء منشغلات بشؤونهن البيتية، إنهن يقمن بتحضير الكسرة وبطهيها على "الطاجين" المثبت فوق كانون كبير يسمى "الطابونة" وإذا كانت النساء الساكنات في الطابق العلوي يجلسن على الجانب، فإن نساء الطابق الأرضي يجلسن كل واحدة أمام غرفتها.

ما أحسن ذلك التعايش..! يتنادين..! يتحاكين بما يحدث في الحياة..! يتبادلن كيفية إعداد الأكل..! فاطمة تطلب من حورية: "كم كسرة أعددت اليوم"، وتجيب حورية:"ستة "، وأما خالتي خضرة الأكبر سنا والأكثر إحتراما فهي تضيف:" أولادي مستعدون لأكل الحجر! فإذا ما وجدوا الكسرة واللبن فإنهم محظوظون ....".

النساء يتضاحكن بينما واحدة تعجن والثانية تطهي، الناس في هذه الدار يعيشون كالنحل، لكل يوم برنامجه..!

يوما الأحد والجمعة راحة جماعية، يوم الإثنين طهي الكسرة، والأيام الأربعة الباقية مقسمة بين النساء لغسل الثياب، وعندما يكون الصيد البحري وافراً فإنه يوم السمك للجميع! تنظيف الأماكن الجماعية يتم دوريا، ومن أجل أن يتم التنظيف قبل نهوض الرجال، كان يجب أن يتم الإستيقاظ في الصباح الباكر أي عند الساعة الخامسة صباحا.

يؤدي باب المدخل الرئيسي إلى رواق يعلن فيه الرجال عن دخولهم، إما بالنطق بكلمة "طريق"، أو بالإكتفاء بإصدار صوت بالحنجرة " آح..آح..".

سرعان ما يفرغ فناء الدار من النساء حين يسمع صوت الرجل، وكأنها عصى سحرية، وبعد دخوله يستأنف الضجيج من جديد..

يقع "الحي العربي" وهو شارع طويل في وسط سكيكدة، التي كانت تسمى "فيليب فيل"، وكانت تحتل جانبي الطريق منازل قديمة تتكدس فيها عائلات تتكون من أربعة عشرة وأحيانا عشرين شخصاً.

وتنزل هذه الطريق مع منحدر يؤدي إلى حي الأمل أو شارع قسنطينة الذي يحتل المركز الحساس للمدينة.

تجد تحت تلك المنازل القديمة على طول الطريق دكاكين ومقاهي عربية.. وتجد بين هذه الدور "الزاوية" التي تقوم مقام الكتاب، والمسجد، ومن الناحية الثانية من الشارع، تجد المدرسة أو المكتب الإبتدائي، حيث نتعلم تاريخ الجزائر والحساب والجغرافيا والأدب العربي والقرآن.

أما في وسط الشارع فنجد "معبد اليهود" وإلى جانبه بعض المتاجر التابعة لهم مثل "روني النقاش" و"جوزيف داتشي" و"عويزرات خرف الله"، الذين كانوا يندمجون مع عامة الناس، كما كانوا يتكلمون العربية الدارجة مثلنا.. إني أذكر دائما السيدة "حنينة"، عمتهم، التي كانت تلبس "القندورة" وتتحزم بحزامها المصنوع من لويزات الذهب..

وأذكر أيضا "مويز أطالي" المسؤول الديني، الذي كان يقوم كل صباح بذبح الأرانب والدجاج ذبحاً حلالًا.

وفي البيت المجاور لنا، على ناحية اليمين، يرقد الوالدان بعرض السرير وبينهما طفلاهما من شدة ضيق البيت، ويرقد الولدان الآخران على الأرض بحيث ينكمش "جمال" كيفما اتفق له تحت الشباك بينما يرقد "فريد" وهو طويل القامة بالقرب من الباب الذي لا يغلق إطلاقاً أثناء الشتاء أو الصيف.

في يوم من الأيام مر فأر بالقرب من فريد وهو نائم فعض إصبعه وعندما استفاق فريد عالجه أهله بشيء من ماء "جافيل" وغطوا مكان العضة بشيء من البن وانتهى الأمر: لا دواء ولا تلقيح..! وبقي أهل الدار يتندرون بالحادثة حوالي أسبوع.

إن جيراننا من الناحية اليسرى، يعتبرون من السكان المميزين لأنهم يملكون مطبخا صغيرا في بيتهم.. هي عائلة مؤلفة من تسعة أنفار، ينام رب البيت عامة في ذلك المطبخ، ويتكدس الباقون منهم فيما بقي لهم من فضاء. بعض الأماكن تحتل بالأثاث القليل القديم أما الأم وهي أكبر الموجودين سناً، فإنها تسيطر على أفراد عائلتها بيد من حديد، وهي مشهورة بطبيخها وخاصة أكلة إسمها "العيش"، وهي عبارة عن نوع من الكسكسي الغليظ المطبوخ في الحليب والزبدة الذي تصنعه هي بنفسها في إناء قديم من الطين.

كثيرا ما نتبادل مع بعضنا الأكلات، وأنا أحب كثيرا طبخها الشهي .. إنها تضع كل الأكل في قصعة كبيرة نتناوله بملاعق من الخشب فيكتسب مذاقاً رفيعا.

في هذا الحي عرفت طعم التضامن التام والجيرة الحقيقية، رأيت الناس كيف يعيشون حياة البؤس ولكن بكرامة وشجاعة لا نظير لهما! إنهم يؤلفون مجتمعا قويا متماسكا رغم صعوبة الظروف، ولا يتنازلون عن عاداتهم وتقاليدهم.

يوم الأحد هو اليوم الذي يكثر فيه الناس، فهناك أهل المدينة وسكان القرى والأرياف الذين ينزلون من الجبل لقضاء حاجاتهم من كل شيء، وخاصة ملابس نسائهم وأولادهم.

في هذا اليوم كل شيء يباع ويشترى.. الباعة من كل رهط يقفون على الأرصفة لعرض سلعهم أو يلقونها على الأرض أو على طاولات صغيرة في انتظار الشاري.

على امتداد هذا الشارع الرئيسي نجد، ومنذ الصباح الباكر، الباعة أو القوالين وقد اصطفوا وتعالت أصواتهم وضجيجهم.

يبدأ الأطباء التقليديون بالخصام من أجل احتلال الأمكنة ويذهبون إلى حد تبادل الشتائم:

"هنا مكاني، ليس لك الحق في احتلاله"..

"وأنت هل اشتريت هذا المكان؟ هل ورثته عن أبيك؟"

ويهدد خصمه بالضرب على وجهه ويرد عليه الآخر: " أنت معتوه وغير قادر على إتقان شيء! هل تعالج مثلي مرض حمى المستقنعات و"القوباء"، وهو مرض جلدي! ويرد الثاني: أنت الذي تدعي ذلك، أما أنا فإني أعرف كل شيء. إنتظر حتى أشدك!"

وهكذا يتصاعد الضجيج وتحمى السوق ولا يفوز بالمكان إلا القوي .. كما ترى على الأرض جملة من الزجاجات الصغيرة المغبرة، تصعد منها رائحة المسك والعنبر! وتسمع صاحبها يعد الناس بالشفاء والمعجزات: " إنني أبرئ المرضى من الجدري والحمى و"البالوديزم" وأسكّن الصرع. إنني أعالج جميع الأمراض وأسيطر على كل شيء ويتقدم إليه شخص أصفر الوجه فيشخص طبيبنا مرضه بسرعة قائلا:" إنك مصاب بالإسهال! عليك بشرب الدباغة (قشرة الشجرة)، تجد فيها الشفاء! ويقدم للمريض زجاجة مغلقة بالفلين وهي نفس الزجاجة التي يقدمها للدباغين وصناع الجلود. وهكذا تصلح أدويته لكل المتطلبات الطبية والخدمات.

يظهر على الناس الإهتمام بما يقول ويفعل، ويزدحمون حوله من شدة الإيمان بأقواله! إنهم مستعدون لشراء ما يعرضه عليهم وخاصة المسك والعنبر وزيوت النباتات وغيرها.. التي تظل روائحها تعبق في الجو مدة طويلة بعد مغادرتهم الحي.

يتقدم منه شخص ينتبه له "الطبيب" بسرعة ويشخص مرضه: " إن وجهك مشوه بهذه التالولة الكبيرة في خدك "ثولالة".. إقترب حتى أنزعها منك بدون وجع أو أي شعور بالألم وعندئذ تجدك حبيبتك أجمل بكثير!

ويدفعه إلى الجلوس بحزم دون أن يترك له وقتا للتردد.

"التالولة" تبدو فعلا غليظة سوداء مشوهة للوجه. وسارع طبيبنا إلى أخذ خيط قوي ثم أداره على التالولة ونزعها في لمح البصر بحيث طارت في الطبيعة دون أن يشهدها أحد. وأخذ قطعة من مرآة مكسرة وأعطاها للمريض لكي يعجب بنفسه، كيف أصبح جميلا بعد هذه العملية. إلا أن قليلا من الدم بدأ يسيل على خده، فأخذ المريض بنفسه قطعة محروقة من الصوف وضمد بها المكان وقد بدا على وجهه الرضى ثم سارع إلى دفع الثمن المطلوب وذهب حامدا الله !

وإلى جانب"الطبيب الجراح" وقف " طبيب الأسنان" وراء طاولته الصغيرة وقد وضع عليها إناء أبيض زانته بعض الزهور وظهرت فيه عشرات الأسنان المسوسة. وإلى جانبه وضع كلّابا ووضع من الناحية الأخرى إناء وسخا خاصا بالبصاق.

إنه طبيب عجيب، كان يتحرك بسرعة وبيده كلّابه من أجل جلب الناس إليه، وكان يعد المتفرجين بعدم إيلامهم أثناء قلع الضرس بسرعة، وبأنه لا يطلب ثمنا غاليا.

لقد كان بلا شك يخيف المرضى من أسنانهم، ولكنهم مع ذلك كانوا يسارعون إلى فتح أفواههم مصممين على قضاء ربع ساعة من الألم.

يتقدم إليه شخص وقد حزم رأسه بقطعة من القماش لتغطية خده المنتفخ. فيقترب منه "الطبيب" الذي لا يملك أية فكرة عن النظافة أو الطب، بل لم يكن يهمه من هذه الأمور شيء. فيضعه على الكرسي قائلا له:" سترى، لن تشعر بأي شيء".

وفي حركة سريعة يقلب رأسه إلى الخلف ويفتح له فمه ليدخل فيه يده ومعها الكلّاب، وفي لحظة يُخرج السن المسوسة بطرف ذلك الكلّاب.

" هذه هي الكلبة بنت الكلبة، إنني أصبتها ولن توجعك بعد الآن!"

أما المريض فقد تملكه التعجب إذ ظهر شعور بالراحة وهو يتساءل: " كيف يمكن هذا..؟ إنني لم أحس بأي شيء"..!. يعرض عليه طبيبنا جرعة من دواء استحضره بنفسه في الوقت الذي يدفع له المريض ماله بسخاء بعد أن انتهى الأمر برمي الضرس في إناء الأسنان الأخرى. ثم إلى مريض آخر وهكذا..

بعد أمتار قليلة وفي مهبط الشارع نسمع بائع الأعشاب يتغنى بمزايا ومعجزات أعشابه وقواريره المعروضة.. إنه ينوه بأدويته المنشطة وبأقراصه الساحرة وأشياء أخرى مثل الطلاسم.

وإلى جانب هؤلاء المختصين هناك "باعة أي شيء" مثل العلب المزخرفة أو الأحذية القديمة أو المسامير أو قطع الحديد غير ذات الجدوى.. إنهم واقفون هكذا بصبر في انتظار المشتري.

وفي مكان غير بعيد نجد شخصا عجيبا اختصاصه" أكل شفرات الحلاقة وقطع الزجاج". يلبس معطفا أسود. وفي حالة حركة مستمرة. للتاثير على المتفرجين. كان يرفع إلى السماء مصباحا كهربائيا يريه للناس تارة ثم يديره بين يديه بإعجاب وشغف تارة أخرى. ويتباطأ أحيانا هنيهة ثم يكسره بعنف فوق الطاولة مبعثراً قطع الزجاج المهشم ليبدأ بابتلاعها بطريقة مسرحية.. وهكذا يثبت للمشاهدين أنه أكل الزجاج وكذلك فرشاة الحلاقة. التي يقسمها بكل عناية إلى جزأين. ثم يخرج لسانه ليبتلعها كما تفعل الحية..

كنت أتوقع سقوطه أرضاً من شدة الألم وكثرة الأوجاع أو بسيلان فمه بالدم. ولكن لا شيء من هذا رأيناه.. ففي الوقت الذي نفخ فيه عضلاته وصدره شرع رفيقه في جمع الفلوس!

هل رأيتم ما يستطيع فعله من يكون محفوظاً من الله..؟

إنه شريكه يسعى إلى تقديمه على أنه شخص فوق العادة. ولهذا يجب أن تكون أجرته عالية..! ويلح على ذلك حتى يدفع المتفرجون أكثر ما يمكن لهذا المبعوث من الله!

إنني أكره أن أرى هذا المشهد. وأبغض رؤيتهم يفعلون بأجسادهم كل هذا العنف من أجل الدراهم والتسلية! ولكنهم جزء من المسرحية.

ويأتي المنادي أو"البراح"... إنه رجل الإعلانات الشعبية الذي يقبض من العارضين أجرته. يقف وسط مفترق الطرق ويشرع في رفع صوته الجهوري:" يا سمعكم بالخير والعافية" هكذا يفتتح إعلانه ليلفت انتباه الحاضرين والمارة بشأن جنازة أو عرس أو احتفال ديني لأحد الصالحين والأولياء..

وفي مكان آخر نشاهد المداحين وقد تجمعوا في حلقات من أربعة إلى ستة أشخاص تساندهم الطبول التي زينت بأيدي "فاطمة" لإبعاد عين الحاسدين!

إنهم ينشدون مدائح دينية أو يقصون على الناس قصص الحب الشهيرة لإبطال الماضي أو خيبات بعض العاشقين أمام الحاضرين الذين لايخفون إعجابهم بما يسمعون.

ويستمر المداحون في غنائهم ورقصهم وضربهم على الطبول في حركات متوازنة.. وكلما ازداد عدد الجمهور ازدادت أصواتهم قوة وحركاتهم خفة.

إن "القوال" وطبيب الأسنان وآكل الشفرات والطبيب والمداح كانوا يؤلفون في مجموعهم شخصيات عجيبة يمتاز بها هذا الحي.

كل هذه المشاهد تجري في نفس اليوم ما عدا لاعب القربة أو الزمّار فإنه يفضل الإنفراد.. إنه يحب أن ينفرد بالجمهور على آلته التي تنقلنا إلى بعيد وتنسينا همومنا.. إنني لا أستطيع أن أنسى مظاهر فرقة "القرقابو" التي كانت ترقص على طنين صنوجها، وحركات فرقة السحرة وجماعة "العيساوة"، أفراد تلك الزاوية الدينية الذين تشقهم السكاكين دون أن تجرحهم.. إنهم يأتون بالعجائب فيؤثرون علينا حينا ويرعبوننا أحيانا أخرى...!

وتوجد في نهاية الطريق المنحدرة نحو حي الأمل إمرأة مشهورة بشفائها للمرضى، خاصة وأنها حسب ما يقال: ماتت ثم بعثت من جديد..! ونظرا لما اشتهر به هذا الشارع من عجائب فإن الناس يرغبون في زيارتها للإستفادة من موهبتها في كشف المجهول والقدرة على معالجة الأمراض.

إنها بالفعل تشفي المريض من داء التهاب المفاصل الذي يصيب الركبة ويجعلها تنتفخ وتؤلم صاحبها. فهي تمرر يدها على الركبة المريضة وتمسدها برفق ثم تمرر السكين سبع مرات وبعد ذلك ترشها بشيء من غبرة الكحل ثم تغطيها وتترك صاحبها يعود إلى داره. وبطبيعة الحال يُكتب الشفاء في النهاية للمريض.

ولكن الذكرى التي أبهرتني وأرعبتني أكثر من أي شيء آخر هي قصة كانت تحكيها لنا إحدى جاراتنا وتتعلق "بالروحانية" أو ظهور الروح.

إنها قصة مذهلة، تبعث عند سماعها الرعشة في جسمي ولكنها في نفس الوقت تدهشني.

أثناء الشتاء تتجمع عندها بعض الجارات، في غرفتها الصغيرة، وتتلذذ هي بسرد رواياتها.

كانت تقسم بكل الأولياء الصالحين بأنها التقت عدة مرات بتلك الروحانية، وهنا يسيطر الذعر على كل الحاضرات اللائي يتوقف التنفس عندهن وتمتد آذانهن وتتجمد أعينهن، في هذا الظلام أو الضوء القليل المنبعث من مصباح قديم تصير كل الظلال مخيفة وكأنها أشباح تتشوق إلى بداية القصة .

وأخيرا يسمع صوت خافت من فمها وهي تحكي للمرة الألف ".. إنها شابة جميلة جدا تخرج في الصباح الباكر من بلّاعة الماء الموجودة في الفناء، وأحيانا عند الأصيل".

وتلتفت القاصة إلى الأطفال وتتوجه إليهم بصوت مقنع ومؤثر قائلة:" أوصيكم على الأخص بأن لا تذهبوا إلى البلاعة، لأنها تخرج من هناك بشعرها الطويل الأسود الذي يتدلّى على كتفيها.

إنها مزينة بأثمن الحلي وتغني أعذب الألحان بصوتها الحنون من أجل أن تشدكم إليها. فلا تقتربوا منها فقد تأخذكم معها إلى غير رجعة".

أسمعها. وهي توصينا نحن الأطفال. فأحس بالرعشة تسري في جسدي. فيبدو لي فجأة وكأن ريحا قارسة تدخل هذا البيت الصغير.

تلك هي القصة الغريبة التي تتلذذ الجارة بتلاوتها علينا. والتي لا تتغير أبدا ومع ذلك تبقى تسيطر علينا دائما.

لهذا السبب فإنني لا أخرج أبدا في الليل من شدة الخوف! وعندما كنت أضطر للخروج فإنني ألتف بالقندورة التي تلبسها أمي وأحرص بأن لا أوجه نظري إلى البلاعة.

لقد كان الرعب يتملكني حقا كلما مررت أمام الغرفة المظلمة التي تملكها بنت العم في نهاية الشارع من قصص عودة الميتة. والروحانية التي تخرج من البلاعة..

لقد كانت مخيلتي مطبوعة إلى حد الآن بهذه القصص التي أرتعش حتى من ذكرها.. والحقيقة هي أن هذه الدار القديمة التي نتمتع بالعيش فيها ليلا نهارا والتي يسودها التضامن والمحبة بين سكانها. هذه الدار قد أصبحت مقرا للخوف في ليالي الشتاء.

أما الكبار فإنهم لا يتصورون الرعب الذي نشعر به عند سماع تلك القصص أو أنهم كانوا يقصدون التأثير علينا لتجنب المحرمات التي كانت تفجر مخيلاتنا.

في هذه الأثناء كنت أظل أتساءل:" هل هذه الروحانية تقدر على جذبي إلى البلاعة؟ هل أن فمها كبير إلى هذا الحد بحيث تخطفني؟ هل حقا تشبه التمساح؟

هل حقا تستطيع التمدد حتى تأخذني وتمتزج بجسدي؟ هل تستطيع أن تطير وتنقلني وراءها ثم تذيبني في الهواء؟ كيف تفعل ذلك وما هي قوتها؟ هل هي سيئة إلى هذا الحد...؟.

إنني أومن أشد الإيمان بما تقصه علينا تلك الجارة. فهل حقا أمهاتنا متشاركات معها؟ ومهما كان الأمر. ففي تلك الليلة التي كانت تحكي فيها القصة. كنت أنام ورأسي مندسّة تحت المخدة. متخيلة دخول تلك المخلوقة الغريبة إلى غرفتي لتأخذني من فراشي.

إن البيت الذي كنا نسكنه بيت عجيب. لكل شخص من سكانه طابعه الخاص.. فمثلا هناك واحدة من الجارات تثير في نفسي جملة من التساؤلات.

إنها امرأة سمراء جميلة ولطيفة الجسم تلبس اللون الأحمر في غالب الوقت. ورغم أنها أم للعديد من الأطفال فهي تحمل كل عام . وهو أمر عادي جدا لولا أنها تمتاز بخاصية أكل الفحم وهو الدلالة على أنها تنتظر طفلا.

في الصباح تقضي وقتها في الأشغال المنزلية وبعد الظهر تستريح مثل غيرها من النساء. مساء. هذا الوقت من النهار الذي تلتقي فيه النساء حول الموائد التي هي عبارة عن طاولات صغيرة لتناول القهوة.

يحدث ذلك كل يوم بعد صلاة العصر. بعد أن يغسلن وجوههن ويسترحن من أشغال الصباح وبعد الإهتمام بأنفسهن. يحضرن قهوة العصر التركية بعد غليها على الجمر. وهي عادة لا تتغير.. أما الصبايا فإنهن يجلسن جانبا ويبدأن في التطريز أو خياطة الملاحف والألبسة وتصوير ما راق لهن من أجنحة أو ملائكة بألـــــوان من

الأخضر أو الوردي أو الأصفر بينما يتهامسن بحكاياتهن عن الحب و الهيام.

وتأخذ اختصاصية "التجميل" في إعداد " المداد" وهو نوع من الكحل، يحضر من المسك المحروق وماء الورد.. ويصنع منه ما يسمى ب"الحرقوس" تضعه بقلم من القصب على الحواجب، فيزيدها سوادا ثم تمرر الكحل على العيون، ولإتمام الزينة تنهي الخط بثلاث نقاط صغيرة في طرف الحاجب، تجعلها بشكل مثلث أو متتابع، حسب مزاجها. مؤخراً، وبعد أن كبرتُ وعرفتُ الحضارة المصرية لاحظت التشابه بين هذا النوع من الزينة وبين تلك التي تظهر على عيون المصريات القدامى؛ فمثلهن تبدو عيون النساء أكثر اتساعاً، وعلى رؤوسهن كن يضعن عددا من المحارم تأتي أكثرها رقة ونعومة مثل الحرير على الجبين. وعلى كلا الجانبين من الرأس يقصصن الشعر بحيث يظهر ما يسمى ب"السوالف" المزينة بحلي صغيرة من الفضة أو الذهب أو اللؤلؤ، وينظفن أسنانهن بعود السواك الذي يزيدها بياضا.

وبعد الإنتهاء من هذه الأشغال التزيينية يجلسن حول الموائد الصغيرة ويأخذن في احتساء القهوة المعطرة بماء زهر البرتقال. أما السيدة السمراء فإنها لا تهتم بأي جزء من هذه التحضيرات وتركز كل عنايتها بحقيبتها الموضوعة إلى جانبها وقضم الفحم حتى الشبع.

هذه هي حياة تلك النسوة الخاليات من القلق أو الحسرة أو التفكير في المشاكل الفلسفية، الراضيات بوضعيتهن.

في بعض الأحيان تحدث مشادات كلامية تتبعها أيام من الغضب ثم التسامح..

وتأتي بعد ذلك المناسبات والأعياد الدينية فتجدد عواطف التسامح والتراضي وتسرع الصغيرات منهن إلى طلب المغفرة من الكبيرات وهكذا دواليك..

يوجد إلى جانب بيتنا "الكنيست"، جامع اليهود، الذين نعيش معهم في حي واحد وجو واحد. أذكر منهم بعض الصناعيين اليدويين والتجار.. فأنا معجبة بالصانع "خرف الله" الذي يشتغل على النحاس، في جلسته التي يتربع فيها على الحصير، وبين يديه إناء كبير من النحاس الأحمر، به نار كبيرة يستعمله كفرن، وبينما يقوم معاون له بتأجيج النار بمنفاخ، يظل السيد خرف الله يضرب على النحاس بمطرقته بلا توقف.. وفي نهاية النهار يُخرج الصانع من ذلك العمل شيئا يبدو كتحفة بالنسبة لي، إنه اختصاصي في صنع الصواني.

وأما التجار الآخرون فإنهم يبيعون الملابس الجاهزة أو القديمة، وفي أيام الأعياد الدينية اليهودية لا تنفك العائلات من المرور على الدكاكين.. كان لباس أكبرهم سنا يشبه لباس الجزائريين.. فالرجال منهم كانوا يلبسون سراويل فضفاضة أو سروال اللوبية ومعه صدارية تحت السترة، وعلى رؤوسهم يضعون شاشية أو طربوشا مزينا بشارة طويلة سوداء تتدلّى على الكتف وتتحرك مع حركة المشي..

وأما النساء فكن يتزين بمعاطف حريرية غنية بالألوان الزاهية، أما الجميلات منهن، فإن منتهى الرشاقة عندهن هو ذوقهن الراقي في تناسق اللباس الذي يضيف إلى جمالهن الطبيعي شيئا من الحلاوة .. وفي بعض الأحيان كن يلبسن سترة مطرزة بالذهب على النمط التركي.

وهكذا تراهنّ في الشارع إلى جانب الصغيرات منهن وقد لبسن الحلل العصرية.. والمعروف عن العائلات اليهودية تنقلها اليومي على الأقدام في الشارع، وقد كان ذلك منظرا جميلا يسمح لي بالحلم وبنسيان الفقر الذي كان يخيم على حينا.

تأتي أغنى العائلات المرفهة في سياراتها فتوقفها أمام ديارنا ويستغل بعض الأولاد هذه الفرصة فيغرس المسامير في عجلاتها. هذا المنظر من اللباس الرفيع والزينة الكثيرة التي تظهر عليهم تغير حياتنا اليومية المسكينة، فنحن نشاركهم أفراحهم ما دمنا أطفالا. فأنا أختلط بأطفالهم وأدخل الكنيست وأشترك معهم في صلاتهم وأدعيتهم وأحرك رأسي مثلهم، وبصفة عامة أشاركهم أفراحهم وأتراحهم من غير أن أفهم ما يعني ذلك، ولكني أعرف أن طفولتي تأثرت بتلك الحياة وكذلك إرثي الثقافي.

الشاطئ

الفصل الخامس

"كامل" صبي من كبار المهرجين، يبغض المدرسة منذ نعومة أظافره ولكن أمه كانت ترغمه على الذهاب إليها وكانت تريده أن ينجح من سنة إلى أخرى، ولكن من سوء حظها كانت الدراسة لا تعنيه بتاتا، كان مسجلا بمدرسة خاصة بالعربية، بعيدة قليلًا عن الدار، ذلك ما كان يسهل عليه التغيب عن الدروس، وكان هذا الطفل يجد دائما الحيل المناسبة لتغيبه: إما التعب الذي يجهده أو صعوبة السير في الطريق الصاعد إلى المدرسة، وإما أن المعلم ضربه.. الأعذار موجودة دائما.. لكن المهم أنه لا يحب المدرسة، وهكذا يقضي وقته في التسلية بين شوارع المدينة، أو يهبط إلى شاطئ البحر، وعندما يحين وقت الخروج من المدرسة يتوجه إلى البيت متظاهرا بالتعب من الدراسة، ويصعد الدرج متثاقلا أو مستعملًا أطرافه الأربعة، وعند مدخل الغرفة الوحيدة يلقي محفظته وينزع قطعة من الكسرة وقطعة من السكر وينسحب سريعا ولا يعود إلا عند غروب الشمس..

وبطبيعة الحال حدث ما كان يجب أن يحدث: لقد طرد من المدرسة ومع ذلك لم يتأثر، بل صار حرا في التجوال، حسب مشيئته، في الأزقة.

لقد كبرنا مع بعضنا، وصار هو شابا جميلا ذا عضلات قوية وشعر كثيف، يعرف كيف يحصل على الكتب المصورة ليقرأها بشغف أو يعيرها إلي..

ولكن أهم ما كان يتصف به هو تدبير الحيل: في يوم من الأيام حمل معه هديتين إلى أخته وإلى أختي أنا. يجدر القول أنه كان من عادة دارنا أن الشخص الذي يقدم هدية إلى شخص آخر يتحتم عليه أن يقدم هدية أخرى إلى صديق هذا الشخص. وفي الأعياد تلبس البنات ذات السن الواحد نفس الألبسة.. لقد كنا نشكل عائلة واحدة. ولكي نظل محافظين على نفس العادة دخل علينا ذلك المحتال بالهديتين - وعند رؤيتهما شرعت البنات في الرقص فرحا باكتشاف هذه الهدية الجميلة المزينة بشريط - مما يدل على أن صاحبنا قد صرف الكثير.

بدأت البنتان في فتح الهدية بحركات سريعة وعيون ترقص فرحا مما جعل الأخريات يشعرن بالغيرة.

نزعتا الورق ثم الغلاف الكرتوني الأول، والثاني ثم الثالث كلعبة العرائس الروسية. ولكن الخيبة بدأت تظهر على وجوههن من فرط ما صغرت الهدية..

أما صاحب الهدية المعروف بالحيلة فكان يتتبع حركاتهن، وفي النهاية ظهرت الهدية. يالها من هدية..! إنها عبارة عن حذاء قديم إلتقطه من القمامة. لقد بانت فظاظة المزاح وقبل أن تلقيها البنات على وجهه لاذ هو بالفرار.

الفصل السادس

في كل سنة نقضي شهرين من العطلة الصيفية على شاطئ البحر ونخيم في مجموعة عائلات عند العين الأولى من شاطئ "جان دارك". أما الرجال فكانوا يستأجرون الخيام الكبيرة من صاحبها "فيدال". وأما النساء فإنهن يهيئن الأشياء الضرورية ويبدأ الجميع في حياة المرح.

نحجز دائما نفس المكان الواقع إلى أسفل. فيلا جميلة تملكها امرأة أوروبية بلغت سن التقاعد.

تحولت دارها إلى ملجإ للشابات اليتيمات اللائي تتحمل هي نفقاتهن. يبلغ عدد الفتيات الثلاثين.

كانت سيدة ستينية، توحي لناظرها دائما بالإحترام والإعجاب. أتقرب منها كثيرا وأراها خصوصا عندما تدفع أجرة سائق الشاحنة التي تحمل إليها كل يوم صناديق الفواكه والخضر، التي يدخلها البنات إلى الدار بفرح كبير.

كنا نقضي فترة الصباح في اللعب بماء البحر بينما تقوم أمهاتنا بتهيئة الطعام في أواني طبخ كبيرة تستأجر بالمناسبة. وبعد الغداء والإستراحة الضرورية نخرج إلى الشاطئ لنساعد البنات على تنظيف الرمل قبل وضع الفراش عليه. وحالما تهب نسمة خفيفة تنزل السيدة "فاعلة الخير" إلى الشاطئ بصحبة جوقتها النسائية التي تسمى "الفقيرات".. حينئذ يبدأ "العرس" وتتجمع حولها النسوة وتتوزع الحلويات والقهوة فنستمتع بسماع مغنيات "المالوف" القسنطيني أو الأندلسي.

وتنضم إلينا بعض المتعودات على هذه الجلسات اللطيفة. ويصبح "الطار" و"البندير" كالملوك أصحاب النشوة والحلم الذين ينقلاننا بعيدا. وهكذا أتذكر تلك الأيام الحلوة المليئة بالسعادة البريئة والبسيطة، صحبة أناس كلهم طيبة وكرم..

إنها ذكريات لا تنسى، إلا أن جدي يقف لنا كل عام ويحاول أن يمنعنا من الذهاب إلى الشاطئ، وإذا لم يتمكن من ذلك فإنه يلتحق بنا لينغص علينا تلك الأمسيات.

وفي يوم من الأيام قرر "كامل" المحتال، أن يقاوم جدي بعملية مدبرة، فالكل يعرف أن جدي لا يتحمل أن تلبس النسوة مايوهات البحر وينزلن إلى الشاطئ، وكلما زارنا في ذلك المكان تسارع النساء والشابات إلى الإختفاء قبل أن يبدأ هو في الدعاء عليهن ووعديهن بالنار وسوء العذاب. وعندما علم كامل بنية جدي في زيارتنا صاح: " إن هذا الشيخ سيسمم حياتنا"، فسيجعل النساء يختبئن عند قدومه ككل مرة. ثم إلتفت إلى أبي قائلا:" يا عمي صالح هل تأذن لي أن أعطيه درسا لن ينساه" ولم يتلق من أبي إلا إبتسامة عريضة. وعندئذ شرع في تنفيذ حيلته، فبدأ في حفر حفرة كبيرة عند مدخل الخيمة وظل أبي مبتسما وهو يتفرج عليه، وبقي كامل واقفا بعد أن فرغ من تغطية الحفرة ببعض الأغصان والرمل بحيث لا تظهر للزائر. وعندما وصل جدي إستقبله كامل بالترحاب.

وكان جدي كعادته مقطب الجبين مستعدا لإلقاء دروس الوعظ، وعندما انحنى قليلا ليدخل الخيمة سقط في الحفرة، سارع كمال إلى رمي التراب عليه.. وعندما وجد جدي نفسه واقعا على الأرض وسط الحفرة عند مدخل الخيمة لم يتمالك نفسه عن التفوه

بعبارات لا تليق بمقامه بل تدينه. فكان يهدد الجميع بالصواعق أمام كامل الذي ظل واقفا يتفرج لبضع دقائق على حركات ضحيته ثم بدأت المفاوضات:

- " عمي الحاج إذا أردت أن تخرج من هذه الحفرة يجب عليك أن تحلف على القرآن أنك تترك النسوة في حالهن..!"

وكان رد جدي:"لا أبدا".

- " إذن ستبقى هنا إلى أن تحس بالشلل في رجليك وتصبح عاجزا عن المشي".

"لا أبدا".

" لقد أزعجت كل الناس ولن يأتي أحد لإنقاذك".

وعندئذ بدأ يخاف على رجليه وقال لكمال:" عليك أن تخرجني من هنا".

"لا يمكن قبل أن تقسم لي على القرآن الكريم".

ورد جدي" أقسم لك!"

وكان يبدو عليه الغضب ولكنه لم يجد حيلة للخروج من هذا المأزق .. ونظر إلي وقال:" إنه مؤمن لا يقدر على الحنث بقسمه فإنه سيحترم عهده رغماً عنه".

وأما نحن، فإننا استعدنا هدوءنا وعيشنا السعيد أثناء عطلتنا.

الفصل السابع

هذا الصباح بقي أبي نائماً في سريره ولقد لف محرمة على رأسه، رجل بمحرمة! هذه عادة غريبة.. لأن حمل المحرمة عادة خاص بالنساء.

في العادة، حالما يراني أبي يفتح لي ذراعيه ويناديني وقد رسمت على فمه إبتسامة، وأما اليوم فإنه يضغط على رأسه ويكشر.

بينما أنا واقفة كذلك أحاول أن أفهم ما يجري، تقدمت إمرأة لا أعرفها وفي حركة تسلطية أخرجتني من الغرفة التي يرقد فيها أبي، إنني أبغض هذه المرأة لأنها قبيحة وشريرة. أغلقت في وجهي الباب ثم عادت إلى الغرفة ب"كانون" (موقد من الطين به نار) وأغلقت الأبواب والشبابيك وقالت بغضب:" لا تتركوا البنت تدخل علينا" .

وشاهدت عندئذ عمتي تهددني بإصبعها، وتوالت بعد ذلك في صمت رهيب، عمليات الذهاب والإياب وقد قطعتها عمليات فتح وغلق الأبواب بعنف. بحثت عن أمي وأختي ولكني لم أرهما وأحسست بحرارة شديدة تخرج عبر الباب كلما فُتح، بينما كنت أحاول أن أشاهد ما يحدث داخل الغرفة..؟.

وصلت عمتي وهي ممسكة بإحدى يديها سكينا وباليد الأخرى حمامة، وأما المرأة الزائرة فإنها كانت تحمل الكانون فوق رأس أبي، وفجأة رأيتها تذبح الحمامة فوق رأس أبي وسال الدم عندئذ عليه والمرأة تقول له بقوة:" يجب أن تتحمل! عليك أن تتحمل الحرارة".

أما والدي فكان يتألم ويتخبط ويحاول أن ينقذ نفسه من هذه الوضعية، ثم يسقط مغمياً عليه على جانب السرير. إنها الدهشة..؟ لقد حاولت المرأتان إنعاشه ولكن دون جدوى، فقد كانت يداه منسدلتين وعيناه مفتوحتين محدقتين في السقف. لم أدرك أن أبي قد فاجأته الوفاة. تلك هي آخر صورة بقيت لي منه.

كان لا يزال شابا لا يتجاوز عمره الأربعين سنة، ولكنه كان مريضا بضغط الدم ولا شك أنه مات بفعل الجهل وتطبيق العادات القديمة التي تقول: "إن التضحية بالحيوانات لها مفعول سحري على المريض". وظهرت أمي وأختي بعد فوات الآوان وكانتا قد أبعدتا من قبل، ذلك لأن عمتي كانت تعرف أنهما تكرهان هذه الممارسات. أما أنا فإنني تعرفت على الموت في تلك اللحظة.

كل شيء جرى بعد ذلك بسرعة.. تعالت أصوات البكاء والعويل، وأكثر الناس من الدخول والخروج، وكنت واقفة أمام باب الدار أتفرج على النسوة اللائي يأتين ضاحكات، ثم يبدأن في النحيب حالما يدخلن الدار، وكنت أجد ذلك مذهلًا ومنافيا لحقيقة العواطف. فكيف لا يحترم هؤلاء الناس شعوري بالألم والمأساة؟ عرفت بعد ذلك أن البكاء صناعة يتقنها بعض النسوة ولم أتصور أن يبكي إنسان من أجل كسب الدراهم، خاصة وأنه يصل إلى حد خدش وجهه! يا له من منظر رهيب...!

تملّك أمي حزن عميق من شدة المصاب، فقد وجدت نفسها، بعد موت أبي، صغيرة السن وبصحبتها يتيمتان صغيرتان وليس هناك من ذكر واحد، وهو الأمر الذي يعتبر عندنا أكبر المصائب. إن المحيط لا يرحم في مجتمعنا.

إن المرأة بدون زوج كارثة ولكن بدون طفل ذكر كارثة أكبر.. إن المرأة لا تكتسب شيئا من الإحترام إلا بأولادها ولن يكون لها كلمة في المجتمع إلا عندما يكبرون.

أما إذا توفي زوجها وترك لها بنتين صغيرتين فهي الطامة الكبرى.. أذكر أن امرأة من جيراننا أنجبت سبع بنات ولكن زوجها لم يطلقها خلافا لكثيرات من النساء، لأنه يحبها، إلا أنه مل إنجاب البنات وعندما توجه إلى دار البلدية ليسجل ميلاد الأخيرة منهن أجاب المسؤول الذي سأله عن الاسم المختار لابنته:" لا أدري، "جاني مار" (كلمة بالفرنسية، معناها بالعربية: مللت!)، وظن العون أن هذه الكلمة هي الإسم الذي أعطاه لابنته فكتبه وبقي اللفظ لاصقا بها طوال حياتها.

جدي من أبي يتبختر دائما في جلبابه "القندورة" الناصع البياض وفوقه برنوسه المطرز بالذهب.. إنه رجل مضياف، يستقبل كثيراً ويذبح غالبا الذبائح لضيوفه، كل ما كان يهمه هو الإحتفالات والصلوات.. كان إبنه يشتغل معه، ولكنه للأسف توفي تاركا وراءه ابنتين، ونظراً إلى أن أبي توفي قبل جدي فإننا وجدنا أنفسنا بدون فلس واحد بين عشية وضحاها. وقد حرمنا من الميراث لأنه لم يهضم ما فعلته أمي عندما سلمت إلى أخيها نصيبها من الإرث، ولكن هذا الأخير لم يترك أخته تتخبط في الحياة فتعهّدها عند موت أبي.. وقد خلف أبي في العناية بي وبدراستي.

أما أختي الكبرى فإنها لم تكن محظوظة مثلي حيث أن جدي اعترض بقوة على دخولها المدرسة الفرنسية، فكانت تتردد على الكتّاب لبعض الوقت حيث حفظت شيئا من القرآن الكريم.

خالي رجل بهي الطلعة، أنيق اللباس وخفيف الهندام. واصل دراسته بوصفه "عربي" متقدم على زمانه، وشغل عدة وظائف في سلك القضاء في قرية قريبة.

وبالنسبة لموظف "عربي" يعتبر قمة ما يصل إليه هو القضاء. كل أيام السبت يقطع عشرات الكيلومترات في سيارته البيضاء من نوع (دي آس D.S) ليزورنا حاملًا بين ذراعيه طيوراً وأشياء أخرى.

لذلك كنت أنتظر يوم السبت بلهفة. إنه يوم عيد عندنا. أمي تحرص على إعداد أحسن الأكلات في ذلك اليوم. ونظرا إلى أن أخاها يحب "اللبن" الطازج فإنني أذهب لأشتريه وتضعه أمي في جرة من الطين حتى يبقى باردا.

وفي هذه المناسبات يزورنا الأقارب والأصدقاء ليعرضوا عليه مشاكلهم. فكان خالي يستقبلهم بكل حفاوة ويعمل كل شيء من أجل مساعدتهم. كما كان يهتم كثيرا بي فيأتيني ببعض الحلوى أو بكتاب من القصص الخاصة بالأطفال.

صارت أمي مالكة للدار التي نسكنها بحكم إرثها من أبيها. والواقع أنه إرث مشترك مع إخوتها إلا أن أخاها وأختها تنازلتا لها عن نصيبهما عندما وجداها معدمة بعد موت زوجها.

ما أحلى الحياة في هذه الدار القديمة ! الأبواب لا تغلق أبدا وليس هنا لك أدنى عملية سرقة.. بل يوجد بين سكانها تضامن غريب وكرم لا حدود له بالرغم من الفقر ألا متناهي الذي يعيشه السكان تسكن إمرأة عجوز تحت الدرج، وهي لا تحضر أبدا ما تأكله لأن طعامها يأتيها بانتظام من جيرانها.. ولذلك فهي تتمتع دوما بغذاء أغنى وأكثر تنوعا إذ أننا في عاداتنا نعطي بصفة عامة أحسن ما عندنا لمثل هذه العجوز.

كل الأطفال يحملون نعوتا تميزهم عن بعضهم. فهنالك "تنانا" التي صارت تعرف بهذا الإسم لأن صوتها فيه شيء من التنغيم، وهنالك "الحولة" لأنها حولاء العينين ترى الأشياء مرتين ولذلك فهي تخطيء هدفها بعض الأحيان.. فكثيرا ما كانت تجري وراء أخيها ولكنها لا تمسك به إلا نادرا. فأخاها كان هو الشيطان بعينه وكان إسمه هو الآخر" بوفناز" لأنه يمشي مشية ثقيلة بأقدام غليظة مسطحة. ولا يلبس أبدا أي نوع من السراويل، قصيرة كانت أم طويلة.. فكل ما كنا نراه على جسده طول السنة، هو لباس "محبوك" أو منسوج من الجلد المقطع.

أما أنا فكنت معروفة بتعبير "أقدام المكنسة" لأنني كنت أجر دائما قدمي.. وهنالك "المطيشة" أي الملقية أو المنسية لأنها تركت وهي رضيعة تحت السرير عندما نقلت أمها بسرعة إلى المستشفى، وقد نسيت هنالك طيلة يوم وليلة لانشغال الناس بأمها.

وهنالك "فيما آنشو" وهو طفل يحب الخصومات كثيرا وقد تلقى هذا الإسم من تعلقه ببطل شريط ياباني إسمه" فومان شو" وهو يمتاز بسرعة حركاته ونشاطه الدائم. يلبس سروالا قصيرا مرقعا ممسوكا بشريط رفيع مكان الحزام ورجلاه العاريتين تزيدانه خفة وسرعة. أما "دحمان"، فإنه بطل "الخزعبلات" لأنه صاحب الحيلة ومهارة اللعب بيديه. فهو زعيم المجموعة بلا منازع..

أولياؤنا لا يقدرون على دفع كلفة ذهابنا إلى السينما. ولكننا قررنا أن نشاهد فلما جميلا للغاية في سينما "أمبير". ومن أجل ذلك حاولنا بكل الحجج الممكنة إقناع أوليائنا بمساعدتنا على دفع تكاليف السينما ولكن بدون نتيجة. عندها قررنا استعمال الوسائل الأخرى.

عقدنا اجتماعا مستعجلا وبعد النقاش إقترح علينا زعيم المجموعة "أن نسحب من جيوبنا كل مدخراتنا" فنجحنا في جمع مائة وعشرين فرنكا، وهو بالتحديد ثمن الدخول إلى الفيلم. فأخذها الزعيم وتوجه بها إلى السينما، وبعد قليل عاد إلينا فخورا بنفسه وبيده تذكرة واحدة. وكانت هذه التذكرة مصنوعة من ورق سميك طولها 4 سنتيمتر وعرضها 2 سم. وطلب منا "دحمان" أن نجلس حوله، فجلسنا في حلقة على الأرض، وجلس هو في وسط الحلقة وأخذ يلمس التذكرة، يضمها إلى صدره وهو يتمتم ثم يظهرها لكل واحد منا، ثم يتوجه إلينا قائلا:" سنخرج من هذه التذكرة عشر تذاكر".. بقينا مندهشين نحدق فيه ظانين أنها عملية سحر. وعندئذ أخذ قطعة كارتون طواها طيا محكما ووضع التذكرة فوقها ثم أخذها بين أصبعيه (السبابة والإبهام) وكون منها قالبا ثم قصه بشفرة حلاقة، وبفضل حذقه في استخدام يديه أخرج لنا رزمة من تذاكر السينما بوسيلة النسخ بحيث لا يتفطن أحد للنتيجة.عند باب السينما انتظرنا كلنا أن يبدأ عرض الفيلم لكي ندخل في الظلام.

قدم دحمان حزمة التذاكر إلى مراقب السينما بكل اطمئنان ثم وقف بالقرب منه ودعانا إلى الدخول بنفوذه وأخذ يعدنا: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة، وهكذا دخلنا الواحد تلو الآخر وجلسنا وشاهدنا الفيلم دون خوف أو ريبة.

وبعد نجاح هذه الحيلة أخذنا في دخول جميع قاعات السينما المتواجدة في المدينة، ولكننا كنا نغيب عن القاعات طيلة شهر في كل مرة حتى لا نسترعي انتباه أصحاب السينما. ولكن الحيلة لم تدم طويلا فقد عرفونا وصاروا يراقبوننا ويطاردوننا.

الفصل الثامن

عمي "رابح" هو صاحب المطعم الشعبي الذي يقع في مكان أعلى من دارنا.. كان يبيع مرقا من الحمص واللوبيا البيضاء تنتشر منه رائحة الكمون في كامل الحي وهو ما يجعل الأطفال يتلذذون برائحتها دون أن يقدروا على شراء صحن واحد منها.

إنهم يعتقدون أن عمي رابح يستفزهم بالطريقة التي يحرك بها المرق أثناء طهيه في قدره المعدني الكبير.. فهو يقضي وقته في تحريك مرقه بمغرفة الخشب الكبيرة وهو يتلاعب بلسانه فوق شفتيه دون أن ينسى مراقبة الأطفال بنظراته الخبيثة.

يقف الأطفال أمام دكانه وفي نفوسهم أمل بأن يقوم بحسنة نحوهم، ولكن لا شيء يأتي من جانبه. فهو مصمم على تركهم واقفين ولعابهم يسيل. إنه يتلذذ في الخفاء بصمته أمام طلباتهم الصامتة. وأمام هذا الموقف الرهيب يدرك الأطفال أن اليأس هو النتيجة الوحيدة، وعليه قرروا الإجتماع لاتخاذ الخطوة التالية. ويفتح الرئيس الجلسة بقوله: "يجب إخراجه من الدكان بكل وسيلة ثم الدخول إليه".

"ولكن كيف..؟ فهو رجل كثير الشك."

يقدم كل طفل منا فكرته ولكن الرئيس يرفضها على الفور:

"إن الرجل عنيد ولن يخرج بسهولة من دكانه "، يؤكد الرئيس باشمئزاز.

ما العمل إذن..؟ ما العمل.. ؟ ثُم بعد طول تأمل يقترح علينا التالي :"يجب أن نعلمه بأن زوجته قادمة إلى الدكان وهي تبكي.."

وعندئذ أظهر دحمان فرحه بهذه الفكرة واخذ يداعب، مغمض العينين، الطريقة التي سينفذ بها الفكرة، خاصة وأنه يعلم أن عمي رابح رجل بخيل وسريع الغضب.

يعب دحمان الهواء وهو يتذوق صحن الحمص محركا رأسه من شدة الفرح، وقد أسال فوقه قليلا من زيت الزيتون. ما أحلاها! والتفت إلى أحد أقرانه قائلا:" إذهب وآتنا ب"طنجرة" صغيرة "

أسرع الطفل وعاد لتوه بما أمر به، وأما "دحمان" فإنه لم يكن يتخيل ما كان سيفعله عمي "رابح" مع زوجته، فقد كان الكل يتصور ما سيحدث، لأن المتعارف عليه في حينا أنه لا يمكن لامرأة أن تأتي إلى زوجها في دكانه وخاصة وهي باكية.

. بدأت الجماعة تتخذ مواقعها فتفرق الأطفال، في الأماكن المختارة، منتظرين أن يروا رد فعل عمي رابح الذي جرى نحوه أحد الأطفال صائحا:" عمي "رابح" إن زوجتك قادمة وهي تبكي".

أسقط "رابح" مغرفته من يده وخرج يجري في الشارع يبحث عن زوجته وقد أخذت يداه ترتعشان وعيناه حمران، لقد تملكه الغضب في الحين وأخذ في شتمها وتهديدها قبل أن يراها.

في تلك الأثناء كان "دحمان" وجماعته يدخلون الدكان ويشرعون في ملء الطنجرة من مرق الحمص ويختفون بأسرع مما دخلوا.

وأما عمي "رابح" فإنه بحث عن زوجته في كل اتجاه، ثم عاد أدراجه وقد أدرك أنه كان ضحية لعبة الجماعة.

وهكذا أخذت الجماعة تفكر في اللعبة اللاحقة.؟

الفصل التاسع

عمي "السعيد" تاجر سراويل "الجينز" العلامة الأمريكية القديمة التي تملأ محله ويتولى نشرها أمام الباب ليراها المارة.

إنه رجل فظٌّ وخبيث يكرهه أطفال الحي ولذلك فهم يمارسون معه كل الحيل الممكنة.. لا يمر يوم دون أن يناله منهم ما يقدرون عليه من مكر، ولذلك فهو يعاملهم بيقظة وحرص شديدين، ولكن كانت الجماعة تنجح دوما في إيقاعه في شباكها.

عمي "السعيد" يخرج من محله ليحقق في سراويله الأمريكية ثم يعدها للبيع دون أن يتحرك من مكانه. إنه سعيد بأرباحه، وكان يقسم بينه وبين نفسه بأن لا ينجح الأولاد هذه المرة في مخادعته. لذلك كان يضع كرسيه أمام دكانه ويرقب مجيئهم وقد تسلح بسوط من جلد الثور.

تمر الدقائق وهو يشعر بالرضى عن نفسه، ثم يعود لِعد بضائعه مرة أخرى، فهو يشك في نقصان سروال من العدد.. فإذا كان لا يثق في هؤلاء الأطفال، فإنه أيضا لا يثق في نفسه.. ليس ممكنا! إنه لم يلحظ أي طفل يمر من هنا ولا حتى ظله. ومع ذلك فهناك سروال مفقود.. ليس ممكنا! لعله نسي العدد الذي بلغه في المرة السابقة. ينظر إلى فوق ثم يدير رأسه متسائلا مع نفسه: كيف تمكنوا من سرقة سروال رغم الحيطة والمراقبة.

ينظر مرة أخرى إلى السماء ليرى هل أن ريحا هبت عليه؟ ولكن السماء صافية لا ريح فيها..

دخل إلى محله وأخذ في البحث والتعداد. ولكنه وجد النقص حاصل دون ريب.

وتيقن أن العملية وقعت بدون شك، ولكن كيف تمت رغم احتياطاته..؟

أخذ عصا بيد، وأخذ سوطا باليد الأخرى وانتظرهم برجلين صامدتين، وهو يتساءل" كيف فعلوا ذلك ولم يقترب منه أحد".

إنه لا يشك لحظة واحدة في أن مدبر العملية هو إبن الجار المقيم فوق دكانه، والذي تلامس نافذته الستار الذي يحمي بابه وهذا الولد عضو في الجماعة.

في هذه الديار تعم الثقة بين الجيران، ولا يمكن تصور أي تواطؤ، الآباء يجهلون السرقات الصغيرة التي يقوم بها أبنائهم، وحتى في حال حصولها وعلم بها الآباء، فإن العقاب سيكون شديدا! إن الجيرة كانت مقدسة.

الفصل العاشر

بعد ظهر يوم الخميس، لا يذهب الأطفال حسب القانون إلى المدرسة. وفي ذلك اليوم، تستفيد النساء من راحة الأطفال لكي يخرجن من منازلهن، وخاصة في فصل الربيع حيث تستمتع النسوة ويتبادلن الدعوات من منزل إلى آخر للتفسح والنزهة.

إنه حدث كبير، حيث يحضرن لذلك اليوم "البراج". وهي نوع من الحلويات العربية المصنوعة من الدقيق والمحشوة بالتمر المعجون تؤكل عادة مع اللبن الحامض، إنها متعة التحضير الدائمة للإحتفال بقدوم الربيع. تبدأ النزهة عند الساعة الثانية بعد الظهر بحيث يكون مركز تجمع الجيران قرب مدرسة البنات "فيكتور هوغو". ويتجه بعض المشاركين في هذا اللقاء البهيج إلى مكان يسمى "سانت لوسي". يحمل البنات القفف المملوءة ب"لبراج". ويتولى الأولاد حمل أواني اللبن الحامض.

نسير مسافة أربعة إلى خمسة كيلومترات، وكلنا متعة بهذه النزهة الرائعة.. الأيام الربيعية جميلة للغاية بزرقة السماء الصافية وزهور الأشجار اليافعة. ما أحلاه من منظر..! يتبادل النسوة الحديث وهن يتمشين في الطبيعة ونحن الأطفال نمرح ونجري هنا وهناك دون الإبتعاد عن الكبار.

"سانت لوسي" تقع في مرج أخضر غير بعيد عن المدينة. كنا نلعب "الغميضة" بين أشجارها الصغيرة التي نختبئ وراءها. كثير من عائلات المدينة العربية يلتقون هناك للإحتفال بعيد الربيع. أما الشابات فإنهن يسارعن إلى زيارة قبر الراهبة ويشعلن الشموع

التي جئن بها للتبرك بذلك المكان. هناك اقتناع شعبي بأن كل شابة إذا أعلنت نيتها ستتزوج، وكل امرأة عاقر ستلد بعد مرور بضعة أشهر. أما أنا فإنني أتنصت عليهن:" سانت لوسي، إذا تزوجت السنة القادمة فإنني سآتيك بالشموع..".

وأخرى تتضرع: "سانت لوسي، إنني صرت عجوزا ولم أنجب أولادا فارحميني.." وأخرى تجهر بسرها:" سانت لوسي، إن زوجي يريد تطليقي إذا لم أنجب ولدا. فساعديني في أن يكون لي ولد، آتني به السنة القادمة". وهكذا..

وكان هذا هو التنازل الوحيد الذي يقدمه الناس للديانة المسيحية. وهذا المكان، هو المكان الوحيد الذي يزوره المسيحيون والمسلمون. إنه مكان جميل يجتمع فيه الناس ويطلب فيه كل واحد ما يريده بالإضافة إلى التنزه.

أما الأطفال فإنهم يجرون ويرقصون ويقطفون الأزهار. إنها لحظاتهم الرائعة التي لا يمكنني أن أنساها.

الفصل الحادي عشر

إنني أواجه إشكالا كبيرا.. فنحن نتكلم العربية الدارجة في البيت ونتعلم العربية الفصحى في المدرسة، واللغة الفرنسية في المدرسة الفرنسية. الطفل الصغير يصطدم بوضعية صعبة في الفهم.. يقولون لنا في المدرسة الفرنسية أن جدودنا هم "الغاليون" وفي المنزل نتوجه إلى مكة لنصلي ونشعر أننا ذوو ثقافة عربية إسلامية، إنها مسألة شائكة.. عندما يكون الواحد منا صغير السن يحاول دائما أن يفهم. ويقودني منطقي الصغير إلى منطق بسيط، وهو أن أمي تتكلم العربية، ولذلك فإن إنتمائي واضح، وما يحكيه لنا الناس في المدارس الفرنسية ما هو إلا هراء..! أضف إلى ذلك أن التصرفات العنصرية تضعنا في الخانة السيئة، ففي السنة التحضيرية الأولى نجد قسمين متوازيين.. قسم للبنات الفرنسيات وقسم للبنات العربيات.

عند دخولنا إلى المدرسة كنا لا نعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية.. ولذلك كانت بداية فهمنا للغة الفرنسية تبدأ في أقسام الحضانة وبذلك كنا لا نشعر بالتمييز.. لكن الأمور تبدأ في التغير في الأقسام العليا، فأنا مثلا أجد نفسي دائما جالسة في الصفوف الأخيرة وهي قاعدة عامة لا يناقشها أحد، ولكننا نشعر بها ونراها ونسمعها.

لأول وهلة كان هذا الواقع لا يصدمنا كثيرا، لأننا تعودنا على هذه التفرقة. فأنا كنت أجد نفسي دائما جالسة في آخر مقعد من الصف منذ دخولي إلى المدرسة الفرنسية حتى آخر سنة من المتوسطة.

في السنة التحضيرية الثانية، وقع لي حادث أثر على نفسي وما زلت أذكره على الدوام.. لقد طردت من فرقة الإنشاد التابعة للمدرسة، قد يبدو حادثا بسيطا، لكنه أتاح لي إدراك وضعيتنا كمستعمرين..

في كل سبت كان يأتينا أستاذ الموسيقى حاملا معه آلة البيانو الصغيرة ليعلمنا إنشاد "المارسييز".. وأنا أحب الغناء رغم أنني لا أملك صوتا جميلا.. ولكن هذا لم يمنع تعلقي بتلك الآلة الموسيقية، أضف إلى ذلك أنني لم أكن أعلم أن "المارسييز" هو نشيد وطني عند الفرنسيين.. فقد كنت معجبة بالإيقاعات القوية الرنانة، ولذلك أحببت مرة أن أشترك في الفرقة.. وفجأة توقف عازف البيانو وسأل بصوت عال عن صاحب الصوت الغليظ الناشز انكمشت ولم أجب ولكنه بسمعه المرهف عرفني وأمرني بالخروج قائلا:

" عندما تتعلمين الغناء يمكنك أن تعودي".

إنها أكبر مذلة في حياتي فقد خرجت وأنا مطأطئة الرأس مهانة، وعندما عدت إلى البيت ولاحظ أبي صمتي واحمرار عيني من شدة البكاء، سألني:" ما بك يا ابنتي.." أجبته:" أردت أن أغني "المارسييز" ولكنهم طردوني لأن صوتي ليس جميلا.."

"ماذا تغنين..؟ "المارسييز.."!، أنا الذي أمنعك من غناء "المارسييز" إنه ليس لنا.."؟!

وأخذ عندئذ يشرح لي بأننا مستعمرون.. ولم أكن أعي ماذا يعني ذلك الكلام. كنت صغيرة جدا.. كل ما كنت أعرفه: هو شعوري بألم شديد لأنني طردت أمام كل الحاضرين.. فهذا الصوت الذي لم يرق لأستاذ الغناء، يجب أن يتغير.

ولهذا بدأت أغلق على نفسي غرفة والديّ، كلما سنحت لي الفرصة، وآخذ في الغناء بكل قوة أمام المرآة. وهكذا بدأ صوتي يصير دافئا نوعا ما، وأخذت أغني في كل مكان وزمان، إلا أنني مع الأسف الشديد، ما كنت أستطيع إظهار ذلك للأستاذ، لأنه كان من المستحيل علي إنشاد "المارسييز".

وفي السنة النهائية من الإبتدائي شعرت ككل التلميذات الأخريات بأن معلمتنا صارمة، وككل صديقاتي شعرت بالخوف الشديد منها وفي يوم من الأيام أدركت أنها عنصرية بالإضافة لصرامتها.

لقد دق الجرس مرة وكنا نصطف صامتات جاهزات للخروج، وحينذاك لم أعرف من تكلمت؛ والتفتت المعلمة صائحة فينا:" من التي تكلمت"؟ لم يجب أحد في الصفوف. وبما أن إحدانا يجب أن يضرب بها المثل فإنها توجهت إلي، وبدون تردد، ضربتني بصفعة على خدي فسقطت من شدة الألم وقوة الحقد.

تملكني ألم شديد في أذني اليمنى وخرجت باكية مرتعشة.. ولما وصلت إلى منزلنا قصصت على أمي ما لقيته من ظلم، خاصة وأن والدي كان قد توفي، كما أن والدتي كانت أمية تماما لا تعرف كلمة واحدة من الفرنسية لتقوم بتقديم شكوى ضد المديرة، ولا أدري ما إذا استطاعت إفهام المديرة.

أكد الطبيب أن أذني قد أصيبت من شدة الصفعة، ولكن شكوى أمي بقيت دون أثر، وبقيت أنا أحس إلى يومنا هذا بآثار الصفعة.

وبعد مرور سنوات، استقلت الجزائر في سنة 1962، وتناسينا ما حدث أمام مغادرة المعلمين الفرنسيين بأعداد غفيرة، فكان لا بد من ملء الفراغ بتوظيف أعداد هائلة من المواطنين بدون الكفاءة الضرورية.

ومع ذلك تم الإفتتاح المدرسي في ظروف عادية، بمشاركة عدد قليل من المعلمين الفرنسيين. وكنت أنا من بين المرشحات وعينت في مدرسة يديرها فرنسي.

وفي يوم إجتماع المعلمين فوجئت بوجود معلمتي السابقة، صاحبة الصفعة.. وهكذا أصبحت زميلة لها. وفي الإجتماع تذكرتني، إلا أنها تجاهلتني وبدأت تبحث عن عذر يجعلها تغادر المدرسة. وهذا ما فعلته خوفا من أن أقتلها.

وبقيت أتساءل كيف عرفتني؟ هل من الإسم أم أنها تذكرت نظرتي إليها بعد تلك الصفعة وقد شحنت بالكراهية العفوية التي لا تنسى؟

كان لهروبها دلالات أكيدة بطبيعة الحال، فالمعلمون يضربون التلاميذ دائما، ولكن المهم هنا هو الشعور بالظلم والإهانة الذي طبع صفعتها لي في ذلك الوقت وقد زرعت في قلبي بذور الثورة.

بعد انتقالي إلى السنة الأولى متوسطة وجِّهت إلى قسم الآداب الذي نتعلم فيه اللاتينية وهو ما يعتبر امتيازا.

وفي الفصل بقيت التفرقة بين الجنسيتين ظاهرة. فلم يكن لدي أبدا صديقات فرنسيات، لأنهن حتى لو كن لطيفات فإن الهوة بيننا كانت عميقة جدا. ولما صارت لي صديقة فرنسية، شاءت الصدفة أن يقتل والداها بعد الإستقلال أثناء سرقة منزلهم. وقد كانت من القلائل اللواتي تقدمن بخطوة نحوي، لكن الحظ السيء كان قد أصابها. وقد تأثرت لمصابها كثيرا ولم أجد الشجاعة لأقدم لها التعازي، وهو الأمر الذي تألمت له، وشعرت بشيء من التأنيب بوصفي جزائرية مسؤولة عن تعاستها.

ومن السنة الأولى إلى الثانية متوسط، كان عندنا نفس معلمة الرياضيات، وهي مادة ليست مهمة بالنسبة لنا.. أما المعلمة فهي آنسة كبيرة في السن، قوية الجسم، تفور بسهولة على التلميذات الذين يردون عليها بالمثل وتثور عليهم لأدنى الأسباب.

ولم يكن هنالك من يفهم شيئا مما تتمتم به لوحدها أمام الصبورة .. وفي الوقت الذي تتطاير وراء ظهرها الأقلام والكراريس والمساطر وقشور البرتقال والموز، كانت تستمر هي في الكتابة وحل المسائل الحسابية دون أي اهتمام، وعندما تلتفت إلى التلاميذ، في الوقت الذي يتواصل فيه رمي الأشياء، تستمر في هدوئها وكأن شيئا لم يحدث. فنظرتها كانت غائبة كليا وغير مبالية.

إنه مشهد رهيب أن تجري الدروس في مثل هذا الجو، المعلمة مستمرة في الحديث مع نفسها وكأن شيئا مما يحدث من شغب لا يعنيها، وكانت ساعة الرياضيات ساعة جنون، حيث تستطيع كل واحدة منا أن تفعل بالأخرى ما تريد، المعلمة، تعامل التلميذات بازدراء والتلاميذ لا يفكرون في جلب اهتمامها لهم.

بطبيعة الحال علاماتنا كانت سيئة للغاية، وعندما تعيد لنا واجباتنا أو الامتحانات الفصلية فإنها تتلذذ بنطقها فتقول مثلا: "الآنسة فلانة نصف نقطة، جيد جدا - والآنسة فلانة صفر، متوسطة والآنسة فلانة دون الصفر بنقطتين، لا بأس" .

كانت سعادتها بهذه النتيجة عظيمة، تعيد إلينا أوراق الإمتحانات وهي رافعة أنفها ناظرة إلينا بزهو وكبرياء، ولكن التلميذات لا يتأثرن بكل العلامات السيئة. كنا مقتنعات أن الأستاذة هي المسؤولة، ولهذا السبب فإننا لم نفعل شيئا للخروج من هذا الوضع الميؤوس منه..

أنا شخصيا لم أكن أفهم شيئا في الرياضيات، وكنت أحاول أن أتلقى دروسا مساعدة ولكن بدون فائدة على ما يبدو.
كنت أجد في إحدى قريباتي، وهي في الأقسام العصرية وقوية في الرياضيات، ملجأً حيث تعطيني من وقت لآخر بعض الدروس، مثلا في ليلة الإمتحان جاءت وأمضت معي الليلة في التمرينات وحل المسائل.
و في يوم الإمتحان كان من حظي أن صادفنا موضوعا كنت قد درسته الليلة السابقة وبطبيعة الحال فإنني أحسنت جدا.
وفي يوم إرجاع المسابقات كانت الأستاذة واجمة محتارة، جلست على مقعدها ببطء ثم ألقت الأوراق على مكتبها قائلة:
"أعلمكم بخبر سار جدا، كل القسم حصل على صفر ما عدا واحدة وهو أمر عجيب"..؟.
وذكرت إسمي بنبرة رتيبة، ثم قدمت إلي نسختي، ووزعت بقية النسخ على التلميذات بدون تعليق، ثم شرعت في حل المسألة على السبورة وهي تتحدث بسرعة كالعادة. يا له من احتقار! وعندما تتجرأ واحدة منا على توجيه سؤال إليها تستبد بها ثورة عجيبة..
في يوم من الأيام وقع ما كان لا بد منه، فقد انفجرت عندما سألتها إحدى التلميذات، وأخذت تشد شعرها وهي خارجة تجري.. كانت النهاية بالنسبة لها، وبعد أيام قلائل جاءنا مدرس آخر بدلًا منها.
ما أعظم سرورنا، كان عسكرياً شاباً يلبس بذلة ضابط صف، واستقبلته التلميذات بإعجاب كبير.. ومعه بدأ عصر ذهبي، فالأشياء لم تعد تتطاير، والسكوت بدأ يخيم على القسم أثناء

الدراسة، ولكن الأستاذ بدا يائسا لكوننا كنا نجهل كثيرا من هذه المادة، ولم يستمر معنا إلا مدة قصيرة، حيث لم تمض أشهر حتى عادت إلينا أستاذتنا المحبوبة.

في إحدى المرات عرض علينا إمتحان في مادة التاريخ، وكان السؤال عن دخول الفرنسيين إلى الجزائر. وأجبت إن الفرنسيين قدموا إلى الجزائر من المناطق الفرنسية الفقيرة، وقد قرأت ذلك في كتاب قديم وجدته في دكان أبي، وفي يوم إرجاع أوراق الإمتحان قالت الأستاذة:" هناك تلميذة غبية مجنونة تتجرأ على شتم أجدادنا، إننا نعلم الفرنسية لهؤلاء التلاميذ ونمدنهم وهم يشكروننا بأفظع الشتائم، إنها الكارثة..!" .

أخذ الفصل يقهقه لسماع هذه الكلمات، وعندئذ وجهت الأستاذة إصبع الاتهام نحوي وهي ثائرة، وكنت أبعد ما أكون عن الظن بأنها تشير بكلامها إلي، ثم استأنفت قائلة : " لهذا السبب فإني أعطيها صفرا وآمرها بالخروج في الحال وإلى غير رجعة".

عندئذ أحمر وجهي وكنت لا أحسب أن ما كتبته يمكن أن يعتبر شتيمة- كنت أظن أن ما كتبته حقيقة قرأتها في كتاب ألفه فرنسي - وتوجهت كل الأنظار نحوي.

تقدمت الأستاذة نحوي لتخرجني بالقوة من الفصل، وعيناها تكادان تخرجان من رأسها من شدة الغضب، شدتني من شعري وجرتني إلى مكتب المراقبة، وهناك بقيت طويلا في الانتظار قبل أن تستقبلني المديرة، وكانت هذه الأخيرة مشهورة بأفكارها التقدمية حيث أنها كانت مناضلة في الحزب الشيوعي.

كنت مسرورة بالوصول إليها، استقبلتني استقبالا حسنا وطلبت مني أن أشرح لها ما حدث. فقلت:" سيدتي لقد كتبت ما قرأته في الكتاب".

فقالت : " في الكتاب المقرر".. ؟

قلت : " لا سيدتي، إنه كتاب وجدته في دكان أبي".

- " كان عليك أن تكتبي ما تجدينه في الكتب المقررة في البرنامج".

- " لم أكن أعلم ذلك سيدتي".

شعرت بميل عميق نحوها وأضافت قائلة: " يا بنيتي أنت الآن في وضع سيء".

ثم فكرت قليلا وقالت بعد فترة من الصمت: " هل يمكنك أن تأتيني بهذا الكتاب".. ؟

- " نعم سيدتي".

" إبق في بيتك ثلاثة أيام، ثم آتني بالكتاب حتى أجمع مجلس التأديب".

فقلت:" لكني سيدتي لم أفعل شيئا مكروها" .

ردت علي قائلة: " نعم أعلم ذلك" وبدت آسفة.

وأشارت إلي بحركة يُفهم منها أن اللقاء انتهى، وشعرت أنها تقاوم ضميرها وضرورة التوفيق بين أفكارها الخاصة ودورها كمديرة. وبعد ثلاثة أيام توجهت إلى مكتبها عند الساعة الثامنة بالضبط حاملة معي الكتاب القديم، سلمت الكتاب للمراقبة العامة، وبعد لحظات خرجت إلي وطلبت مني أن أعود إلى فصلي. لم أصدق أذني وأسرعت إلى قسمي، لكن مع الأسف بقيت أنعت بالغبية لمدة طويلة.

سيدس علي الديب
الجامع الكبير

الفصل الثاني عشر

سنة 1953، كانت بالنسبة لنا سنة سوء الحظ. فقد توقفت عن أمي الحياة منذ وفاة زوجها، وأنا لم أعد أزاول تعليمي في المدرسة، حيث لا بد من دفع أجور الدراسة، والسبب في ذلك هو العقوبة التي سلطها علي جدي لأبي بعدم دفع أقساطي الشهرية.

كما أن المدرسة كانت مؤسسة خاصة تحت إشراف جمعية العلماء التي يساعدها ماليا بعض الشخصيات الذين كان جدي واحداً منهم.

فكان لابد إذن أن تدفع أقساط الدراسة لتغطية أجور المعلمين، وهذا ما أثر في والدتي، إلى جانب قضايا أخرى أضرت بمعنوياتها حتى أصبحت مريضة.

يعالج أمي بعض الأطباء العاملين في مستوصف المدينة حيث كانت مساعدة إجتماعية في الأربعين من العمر تعمل هناك، إسمها الآنسة "بورغيرو"، قصيرة جدا ونشيطة، تهتم كثيرا بمرضاها وتسهر عليهم، وبما كان لديها من إمكانيات استطاعت إفهام الناس بوضوح".. إنها إنسانية وتقوم بعملها بشغف وكفاءة، تتحسّس مشاكلنا، وتزورنا كثيرا لأنها لاحظت أن أمي أصيبت بوهن في الجسم والنفس بعد موت زوجها مما جعلها تعيش في حزن عميق لم نعد نسمع حتى صوت المذياع في البيت، وهكذا اكتفينا بمطالعة الكتب المصورة لكي نتسلى.

أصبحت الحياة رتيبة عندنا وأخذ الشعور بالإحباط مكانه بيننا نحن الثلاثة..

فقد تملكنا إحساس بأن كل شيء مجمد وأن ليس هناك أمل في المستقبل، كما لو أن الزمن توقف نهائيا في محيطنا.

فقدت أمي كل أمل ولم يعد عندها ما يخفف أساها، وحتى الزيارات المتكررة التي يقوم بها أخوها لنا لم تعطها أي إحساس بالطمأنينة.

ذات يوم كانت المساعدة الاجتماعية جالسة إلى الطاولة في غرفة الطعام، وفجأة قالت لي: صغيرتي هل ترغبين في الذهاب إلى فرنسا لقضاء العطلة الصيفية ؟..

فنظرت إليها نظرة تعجب وتساؤل وأحسست بسعادة غامرة. آه لو أمكنني الهروب من هذا الجو الثقيل الذي نعيش فيه منذ وفاة والدي ! ولكن مجرد فكرة ترك والدتي لوحدها أربكتني. كنت أشعر أني مسئولة نوعاً ما عنها، وخشيت أن أقبل الإقتراح ثم لا أرتاح إليه بعد ذلك: والدة أمية تعيش في جو من الشقاء والتأثر ولا تنفك تذكّرني يوميا بأني أملها الوحيد. وأخت محجبة لا تخرج من البيت، وخال لا يزورنا إلا مرة كل أسبوع..

كيف يمكنني أن أذهب وأتركهما في وحدتهما ؟ ومن ناحية أخرى، أنا لا أشعر بالقدرة على تغيير أي شيء بجسمي النحيف، ما عدا المشاركة في الضجر والشكوى اليومية من سوء الحظ.

إن فرنسا بلد بعيد وأنا أشعر بالضياع وبالخوف من المجهول. كنت ألوم كل شيء في الحياة على ما أصابنا، ألوم قبل كل شيء تلك النسوة اللائي قتلن أبي بدعوى معالجته بالجهل، وألوم هذا الحظ السيئ الذي أطبق علينا والموت الظالم الذي انتزع مصدر رزقنا وأمننا، وبالأخص العطف والمحبة اللتين أشتاق إليهما.

كنت أوجه كراهيتي إلى تلك المعلمة التي ظلمتني عندما ثقبت سمعي حتى أصبحت أذني اليمنى تؤلمني في كل وقت، وكنت ألوم بالأخص جدي الذي تخلى عنا بسبب قضية ثأر سخيفة.. لقد دفعنا الثمن غاليا، خرجت من المدرسة وبتنا بين عشية وضحاها بدون مورد.. وفهمت المساعدة الإجتماعية كل هذه الوضعية، لما تتمتع به من بُعد نظر وصلابة، ولهذا رأت أن الحل يمكن أن يكون في إبعادي عن العائلة.

فرنسا: بلد أسمع وأقرأ عنه في كتب التاريخ، إنها بلد أصولنا الغاليّة، نتعلم عنها وعن جغرافيتها الكثير، بحيث أنني أعرف كيف أرسمها عن ظهر قلب، ولكنها بعيدة جدا.. إن كل شيء مختلط في رأسي، فقد شرح لي أبي أن الإستعمار قد دخل بلادنا واحتل أراضينا بالقوة.

إنه أمر صعب بالنسبة لطفلة صغيرة. لكن الآنسة "بورغيرو" كررت سؤالها، وبدون تردد أجبت بنعم.

إلتفتت في الحين إلى أمي وقالت لها دون أن تترك لها الوقت لتقول كلمتها: " سأجلب لكم قائمة لوازمها، وإذا نقص شيء أخبريني، ستذهب لقضاء عطلة الثلاثة أشهر، وستتعرف على أطفال آخرين وسينفعها ذلك كثيرا".

وجدت أمي نفسها أمام الأمر الواقع، فلم تجرؤ على معارضة المشروع، ولم يأخذ منا الإستعداد كثيرا من الوقت. لقد كنت أرغب في الذهاب ولكنني كنت أشعر بالحرج.. فكل الحوادث المتتالية التي ضغطت علينا جعلتنا في حيرة من أمرنا. وفي اليوم الموقوت قررنا اللقاء في المطار حيث وجدنا أطفالا آخرين.

صعدنا الطائرة. بالنسبة لي كانت المرة الأولى، وكانت أمي وأختي ترافقاني إلى المطار، وكنت أشعر بوخز في قلبي حيث أنني أركب الطائرة لأول مرة. وبقيت مسمرة في مكاني طوال السفر خائفة من الموت.

لا أذكر كيف انتهى بنا السفر، فكل ما أتذكره هو أنني استيقظت في الصباح الباكر، وأنني صعدت سلماً عريضاً قبل أن أجد نفسي في فناء واسع. واكتشفت بنايات ضخمة مهيبة لا ينتهي علوها. وقد بدا لي أنها حزينة للون سقوفها المغطاة بحجر رمادي اللون، وكنت أدور حول نفسي رافعة رأسي لاكتشاف هذا العالم العجيب أما دارنا فقد كان سقفها أحمر حتى لو كان ينقصها بعض القرميد. وأنا أحب كثيرا ذلك السقف القديم، وأحيانا عندما أكون في وحدتي أتأمله، أتفرج عليه ساعات طويلة، محاولة عد القرميدات الناقصة. وفي الشتاء يكفي للريح أن تهب حتى تأخذ القرميدات في الطيران والإنتقال من مكان إلى آخر، ويقوم أنشط الجيران بوضع سلم على السقف ليحاول تثبيتها ببعض قطع القرميد المكسرة.

وعندما يهطل المطر أشعر بنغمات موسيقية فتجدني أضع الميزان الموسيقي لتلك النغمات طيلة ليالي الشتاء الحزينة. وتقوم أمي من ناحيتها بوضع الأواني لتجميع قطرات الماء. ونظرا إلى أن تلك القطرات لا تسقط بنفس الإيقاع فقد كان لتنوع الأواني، غير المتشابهة، أصواتا كذلك مختلفة.

أتخيل أنني ألعب على آلة البيانو، أعزف سنفونية، وأني "شوبان" الصغيرة، ولكنني لا أعلم شيئا عن النغمات. إنني أحب سقفنا مهما كان، فالسقوف التي اكتشفتها في فرنسا كلها رمـــــادية

حزينة منظمة إلى حد بعيد، وأنا لست معتادة عليها، ففي بلادنا تغطى دور الأحياء الفرنسية بسقوف من القرميد الأحمر، ولكنني لا أعيرها انتباهي إلا قليلا. ومع أن سقوفنا كلها تكاد تكون في وضعية سيئة، فإنني لم أتصور أن تكون سقوفهم في غاية الإنتظام.

كنت غارقة في تساؤلاتي عندما توقفت فجأة تحت تأثير شيء ما ورائي، إنه ظل القبعة التي تغطي رأس راهبة كانت تقف أمامي بلباسها الأبيض الناصع، نظرت إليها مندهشة إذ لم أكن أعلم أني نزلت عند الأخوات البيض، لقد كلمتني الآنسة "بورغيرو" عن العطلة دون تفصيلات أخرى. إبتسمت لي الأخت إبتسامة عريضة وقالت لي بلغة فرنسية رديئة:" أنت، لا بأس.."

وأجبتها بنعم. فقالت لي: " إذن تأتين معي". وتعجبت أنها تتحدث بهذا الشكل، وبدأت تجرني مقتنعة أنني لم افهمها، واجتزنا كثيرا من المعابر حتى وصلنا إلى باب دقت عليه باحترام، ورد صوت رقيق وصارم:" أدخل".

فدخلنا ووجدنا أختا كبيرة السن مستقيمة، جالسة وراء مكتب عريض.. كان تمثال المسيح المصلوب مشدودا إلى الحائط، وراء ظهرها، فأوحى إلي بالخوف من شدة طوله ومن شدة الصمت المخيم على المكان.. بينما كانت الأخت المديرة تحرك رأسها دون أن تلفظ كلمة واحدة، وقد كانت تعريني بنظراتها في لطف وبانتظام، بدأت بملابسي الداخلية ولاحظت نوعها الرفيع وتفحصته الواحدة بعد الأخرى، ثم لامست يدها بشرتي قائلة:" إنها نظيفة وملابسها كذلك، لقد غسلوها جيدا قبل أن يرسلوها إلينا"، في البداية لم أفهم مغزى هذا السيناريو،

فقد كنت أبعد ما يكون عن فكرة "أنهم يظنون أنني متسخة"، ولو أن أمي سمعت بذلك لثارت ثائرتها، فهي التي تعرف بنظافتها الدقيقة.. عندئذ بدأت أدرك أن هذا الأمر فيه مهانة كبرى، وبينما كان كل شيء يختلط علي، بدأت الدموع تنهمر من عيني من شدة الإهانة التي لحقت بي، وكانت الأختان تحدقان بأذناي دون أدنى كلمة. ماذا بهما أذناي ؟ هل هما غير ملتصقتين برأسي أو هما وسختان؟ لا أظن.

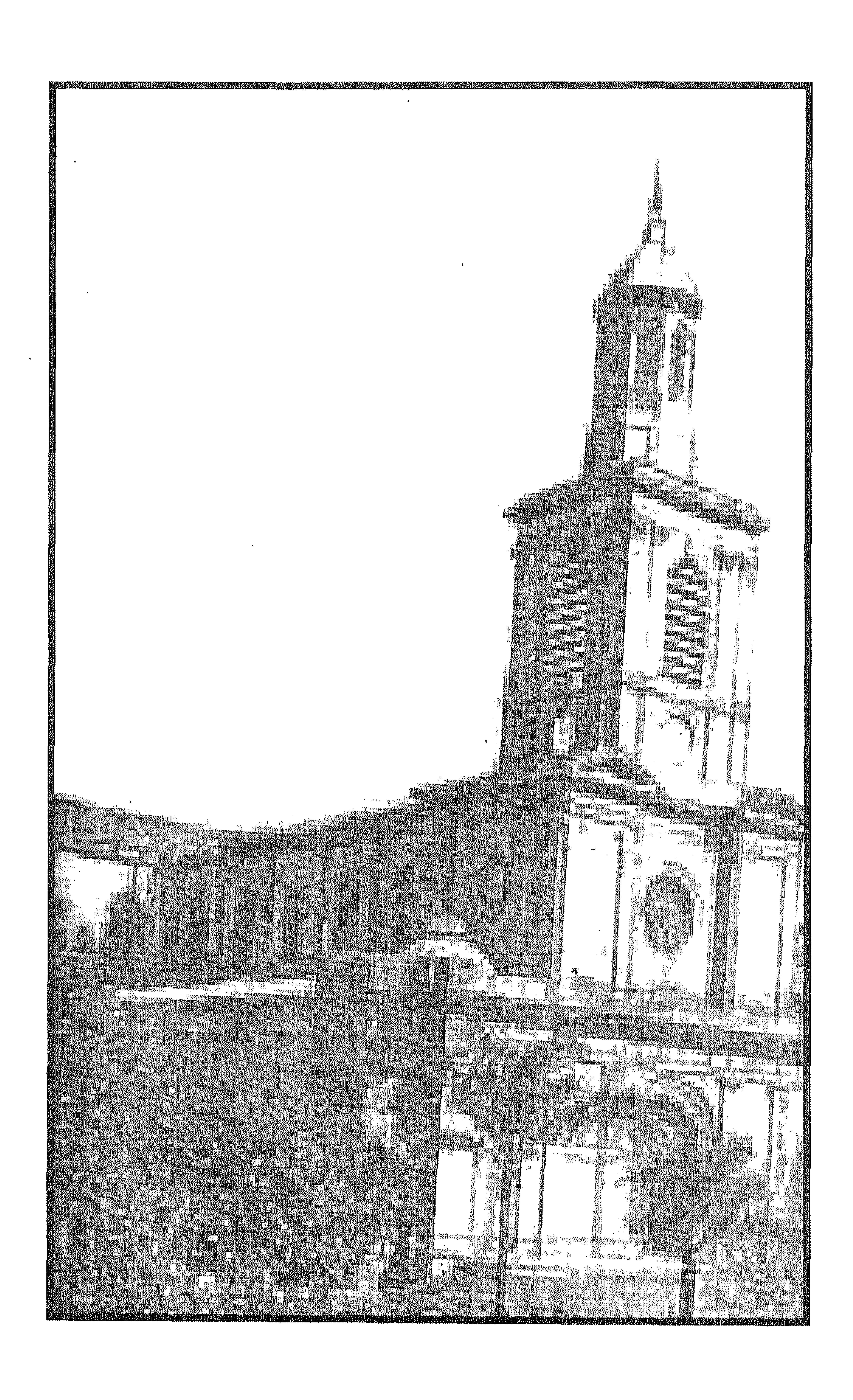
وبدوري بدأت في لمسهما ولمس الخرصين الذين نسميهما عندنا ب" المسلوط"، وكذلك حبات المرجان المركبة عليهما، ما الذي أمتاز به عن الآخرين أو أختلف فيه عن بقية البنات ؟ ثم في المطعم، لم يتوقفوا عن النظر إلي بحيث شعرت بالإشمئزاز والتساؤل في نفس الوقت.

ومع ذلك بدأت أختلط بمن حولي، فقد أخذوا ينادوني باسم "ميراي". كنت أتكلم كما تتكلم زميلاتي ولم أكن أتكلم بلغة رديئة، كنت أفهم جيدا ما يقولونه لي.

أين هي المشكلة إذا ؟ كلما مررت من هنا أو توجهت إلى مكان ما أجد عيونهم مركزة على أذنيّ ويبدأن يهمسن بينهن. أسأل صديقاتي الصغيرات فلا يجدن شيئا غريبا في، ولكن الراهبات بقين يخاطبنني بلهجة رديئة، وينظرن إلي بنظرة الحنان والإشفاق. وهكذا بقي التساؤل يحيط بي طيلة إقامتي، وأنا لا أحب ذلك..

علمت أن الطائرة قد حطت بنا في مطار صغير تحت إشراف راهبات "سان فنسان دي بول" في مكان يدعى " لاكون لي بان" في مقاطعة " تارن" .

وما عدا ذلك لم أكن أشعر بأي فارق بيني وبين بقية البنات.



كل ما هنالك هو هذا الشعور بحالة غير مفهومة تجعلني لا أرتاح إلى ما أنا فيه.

لم أكن أتحدث لغة فرنسية أكاديمية ككل الأطفال، ولكنني لا أمتاز عن غيري، ويمكنني أن أذوب في الوسط بحيث أنني عادية جدا. قدمت من وسط عائلي حزين محبط فوجدت نفسي في وسط يتغامز فيه الناس علي، وهذا ما زاد في الضغط علي.

استدعتني الراهبة المديرة في يوم من الأيام، فوجدت في مكتبها رجلين وامرأتين في انتظاري. قدمتني الأخت: "هذه هي صغيرتنا " ميراي" ، ووضعت يدها على كتفي بحنان رهيب، كانا ينظران إلي نظرة استطلاع حين دفعتني الراهبة برفق نحوهما.

تقدم مني أحد السيدين بيدين بارزتي العظام، بمنظر ينم عن طبيعة قاسية لا يرتاح لها الإنسان وبدأ في لمس القرطين والدرر التي تخليانها، ثم أومأ برأسه:" نعم إنها أسنان الحليب".

أما الشخص الثاني فقد فتح فمي وأخذ في استعراض أسناني بقسوة كما يفعل تجار الحيوانات في الأسواق.

شعرت برغبة في عضه، ولكن تربيتي على احترام الناس الكبار منعتني، ثم إنني كنت خائفة منه لأنه "قبيح" للغاية على ما يظهر.. لقد استأت كثيرا من هذا التصرف، ورغم صغر سني صرت أفهم ماذا يقصدان.

إنهما يريدان الإقتناع بأنني جئت من إحدى القبائل المتوحشة وأنني احتفظت بأسناني للتبرك بها، ولم يمهلاني للرد عليهما إذ أدارا وجهيهما وانصرفا، وأنا واقفة مكاني ثائرة ولكن عاجزة عن أية حركة.

ومع ذلك فإن الراهبات كن لطيفات معي بالرغم من نظراتهن المعبرة، لم يبدين نحوي أية عنصرية، ولكنني كنت متأثرة جدا لكوني أصبحت فرجة للجميع.. وكان كلما جاء زائر تبادر الراهبات إلى تعريفه بالبنت المتوحشة التي نجحن في ترويضها وتمدينها..

لكني وبعد مرور سنين على هذه الحادثة، ما زلت حتى الآن، أتساءل كيف يمكن لأشخاص عاقلين منطقيين متشبعين بأفكار منهجية أن يخطئوا في معرفة الجواهر والخلط بينها وبين الأسنان.

كنت بنتا صغيرة، ومع ذلك كنت أستطيع التفريق بين إفريقيا وأوربا، بين الشمال والجنوب، بين الأبيض والأسود، وبين الخير والشر.

فكيف كانوا يتصورون الأسنان..؟

لقد اختفت ملامح العمل الجيد الذي قام به المستعمرون في الجزائر من كثرة فاعليته..؟؟

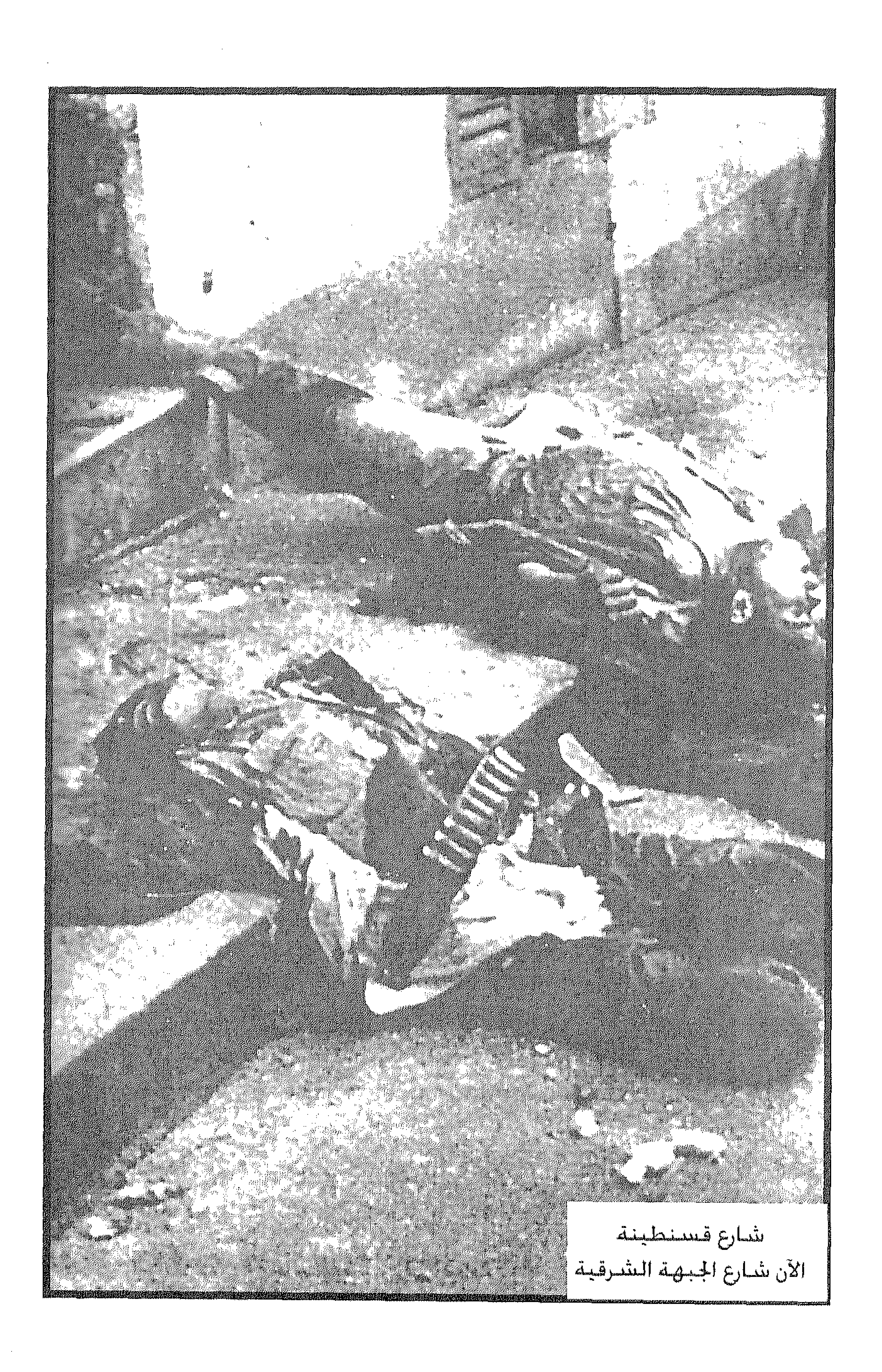
أنا لا أرى أية فروق بيني وبين زميلاتي، وأكثر من ذلك، أنا أتكلم لغتين وهن يتكلمن لغة واحدة، ومع ذلك لم أجعل من تفوقي وسيلة للإستعلاء.

الأسنان، الملتصقات بأذني، كانتا اختراعا ساذجا من وحي لا محدود لفتاة راشدة فيه.. وأنا، مازلت صغيرة، ولست واعية كثيرا بوضعيتنا، لكن، تصرفات حاقدة مثل هذه، تغمر قلبي بمشاعر الغضب.

النوايا الحسنة للمساعدة الاجتماعية ذات الإحساس الرهيف تفضي بها إلى وضعية اجتماعية صعبة، فلا يمكن القول بأن احمرار الجحيم ينبئ عن نيته الحسنة".

لكل منا خصوصياته، أنا ألبس "مناقش" باللؤلؤ على الشكل "الباروكي"، وزميلاتي يلبسن الصليب في أعناقهن،

هل هن متوحشات إلى هذا الحد..؟! هل هن من اغتال المسيح..!؟
بقيت طويلا أتساءل عن الذهنيات البليدة لبعض الناس العاقلين، وعن أفكارهم المتحيزة، وكيف يستطيعون تغييب المنطق.
ومع بداية حلقات التكوين، كنت أرفض نهائيا المناورات، فأنا لا أريد أن أشكل علاقة ظرفية مع القفص أو مع الفتنة الجميلة في حديقة الحيوانات..؟؟
وأعتقد أن رفضي هذا بدأ يعطي ثماره، فقد حررت من صلاة الأحد، وتركوني في حالي إلى الأبد.. مع زميلاتي المغمورات لم تعد تزعجني صلبانهن، وكذلك أنا، لم تعد مناقشي تهمهن في شيئ..؟ أحب حلقات التكوين الخاصة بصناعة الطين وسعف النخيل، كما كنت أحب أن أغني أثناء استراحتي أغنتي المفضلة . « Tue- Tète »
وانتهيت إلى قناعة" عندما نكون صغارا، ننسى بسرعة، لكن يا إلهي، عندما نكبر نصبح أكثر تعقيدا.



شارع قسنطينة
الآن شارع الجبهة الشرقية

الفصل الثالث عشر

في اليوم التالي، أي يوم 20 أوت 1955 وكان يوم سبت، أحضرت أختي قفة وضعت فيها شيئا من "الشوربا" وبعض الفواكه وقليلا من الكسرة، وقالت لي:" خذي هذه القفة واذهبي إلى أمي" فأخذتها وتوجهت إلى المستشفى.

وكنت يومها ألبس لباسا قصيرا ذا لون أبيض ممزوج بالأزرق، ومعه حذاء أبيض وقبعة مزركشة بحب الملوك ومزينة بشريط أحمر عريض. ولكي أصل إلى المستشفى بسرعة، مررت عبر الحديقة العمومية الرائعة التي تغطيها الأشجار الضخمة النادرة.

ووضع تحت ظلها مقاعد لراحة الكبار والصغار، فبرودة تلك الأشجار كانت ضرورية عند اشتداد حرارة شهر أوت.

كانت الساعة تشير إلى 11 و45 دقيقة، والحديقة تكاد تكون خالية في هذا الوقت الشديد الحرارة.

وكانت هذه الحديقة تقع في منحدر، وتؤدي عند مخرجها العلوي إلى الكنيسة الجميلة التي يقال أنها بنيت بحجر كبير جيء به خصيصا من مرسيليا. ويوجد إلى جانبي الكنيسة ساحتان واسعتان تقع في واحدة منهما مدرسة "فيكتور هوجو" التي أتعلم فيها.. التي كان علي أن أحاذيها، وأن أمر بعد ذلك عبر مدرسة الصغار ثم أصعد في طريق أخرى لأصل في النهاية إلى المستشفى الواقع إلى جانب ثكنة "فرنسا"..

عند مروري بالكنيسة رأيت القس فحييته فأجابني: "صباح الخير يا بنيتي الصغيرة"، وفي الحين وكما جرت العادة قمت بحركة

وكأنني أبصق في الأرض لأستعيذ من الشياطين. قلت في نفسي: "يا إلهي أعذرني من الشيطان الرجيم" وأسرعت خطواتي وأنا أفكر في القس.

تعودنا هذا القول نحن المسلمون. والقساوسة أيضا تعودوا على هذا التصرف ولم يعودوا يهتمون له.

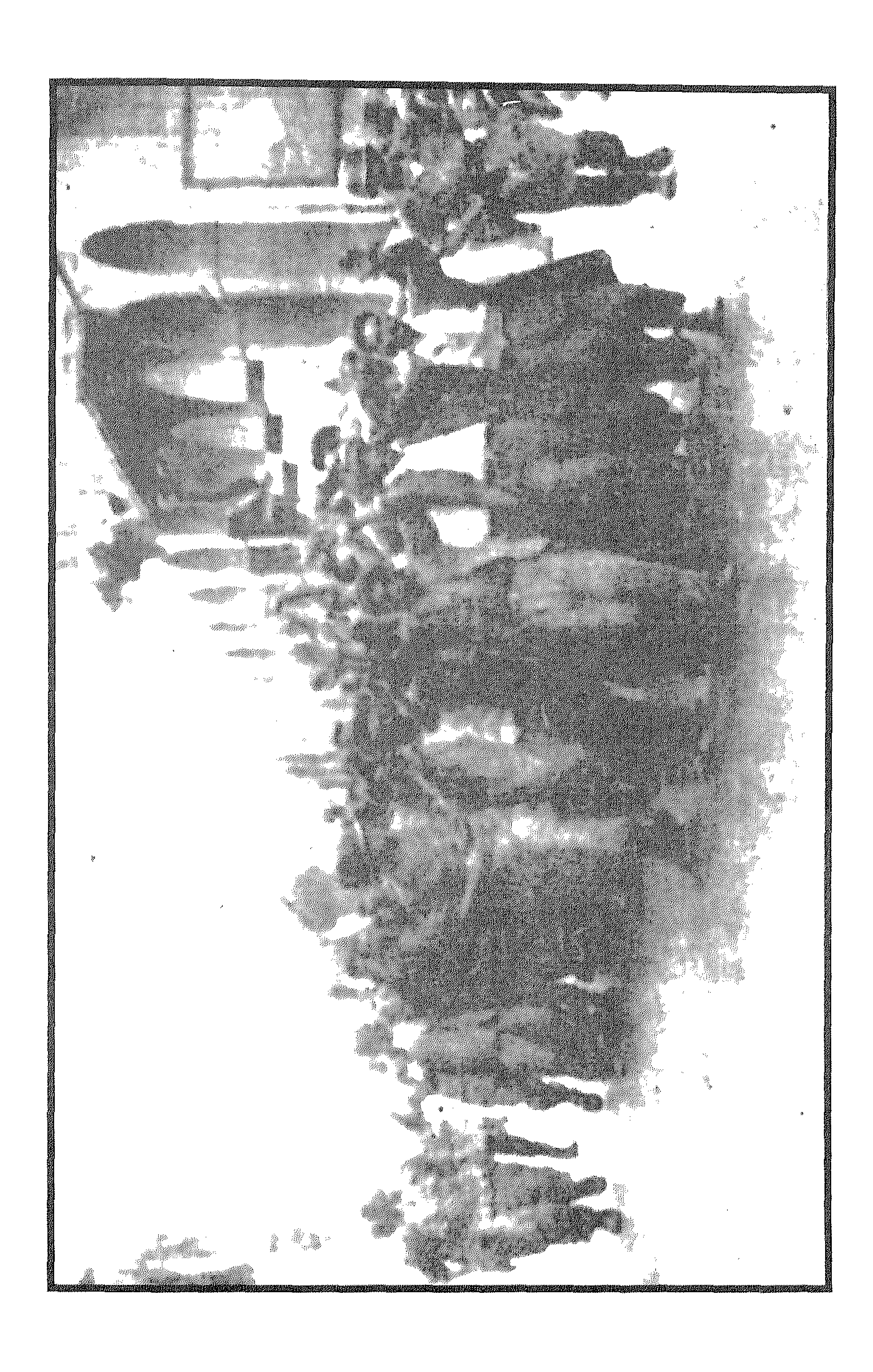
لا أفهم جيدا معنى ما أقوم به. خاصة وأننا لا نفعل نفس الشيء عندما نقابل الراهبات. وبالعكس من ذلك فالناس يرونهن برضى العين لأنهن يحملن لهم ما يخفف عنهم آلامهم حسب ظني. أما القساوسة فإنهم يشتهرون بإدخال الناس في الدين لمسيحي. ولذلك يتعوذ الناس منهم. أما بالنسبة لي. فالقس هو الشيطان. وكفى.. أسرعت خطاي تجاه مدرسة البنات. الساحة كانت خالية والحرارة شديدة ومع ذلك كنت سعيدة بقبعتي التي تحميني من الحر. كم تمنيت هذه القبعة ؟ زميلاتي الفرنسيات يلبسن هذا النوع من القبعات ويحتمين بها من الحر.

الجو ثقيل للغاية والسماء محمرة. لا يسمع إلا أزيز الخنافس في الأشجار.

وقفت هنيهة وأخذت منديلي لأمسح به العرق الذي تصبب من جبيني.. ولم أكن ألتفت إلى ما حولي. وفجأة وجدت نفسي أمام رجل لا يتجاوز الثلاثين سنة لابسا "قشابية".

الشيء الذي لفت انتباهي إليه هو هذه القشابية المصنوعة عادة من الصوف والتي يلبسها في عز الصيف. ولم أكد أنتهي من هذا التساؤل حتى رأيت الرجل يرفع القشابية ويخرج من تحتها بندقية ويصرخ: "الله أكبر. تحيا الجزائر".

ظللت مكاني واجمة دون حراك كالحجر. وعندما أفقت من دهشتي



بدأت أسمع طلقات النار من هنا وهناك، ولاحظت أن الرجل الذي كان يلبس القشابية قد تبخر، أما أنا فلم أقدر على الحراك لشدة مفاجأتي بهذه الوضعية الغريبة. ماذا أفعل..؟ هل أهرب ؟ هل ألزم مكاني؟ هل أصيح ؟ هل أبكي؟ أنا محتارة إلى أبعد الحدود. لم أر سلاحا قبل هذا اليوم، ما عدا ما رأيته في الصور..؟؟.

من الثكنة المجاورة خرج عسكري يجري، وما أن رآني حتى صرخ: " ماذا تفعلين أنت هنا ؟ تعالي معي، إنك ستقتلين".

لم أجد ما أجيب به، بقيت تحت هول الصدمة صامتة عاجزة عن الحركة، أمسك بيدي وجرني طول الطريق الصاعدة والمؤدية إلى المستشفى.. لم أشعر بركبتي ولم أقدر على السير بسرعة خطواته الكبيرة. فكان من حين لآخر يتوقف ويقتلعني من الأرض، ثم فقدت تنفسي وأصابني دوار في رأسي.. وصلنا أخيرا إلى المستشفى وسلمني إلى مكتب المراقبة ودون أن يقول كلمة واحدة عاد إلى الثكنة ؟

بقيت هناك من الثانية عشر إلى الخامسة مساءً، وحسبني البواب فرنسية، فأخذ يحدثني بلطف ليطمئنني ويطلب مني أن لا أبكي. لم أكن أبكي، لأنني لم أفهم شيئا، ولم أدرك بعد ما حدث، ولكنني كنت مضطربة لأنني كنت في حالة غير عادية، وأظنه كان يشعر بالخوف أكثر مني، لأنه كان يدري ما يحدث في ذلك الوقت.

بدأنا نشاهد وصول كثير من الجرحى العسكريين، ولم ألحظ بينهم جزائريا واحدا.. وكانت طلقات الرصاص تسمع من كل جانب، كما كان صوت القذائف يزيد من حرارة الجو..

حوالي الساعة الخامسة والنصف توقفت الأصوات، وأظهر الحارس بعض القلق من وجودي معه، ووصلت في تلك الأثناء سيارة

عسكرية من نوع "جيب" وسأل الحارس ركابها:"هل يمكنكم مرافقة هذه البنت الصغيرة". فأجابه السائق: "بلا شك" والتفت إلي قائلا: "إصعدي أيتها الصغيرة".

ولم أنتظر منه أن يعيد الأمر وتركت السلة للحارس وقد كتب عليها اسم أمي.

سمعت النساء يبكين وقد تملكهن القلق على عائلاتهن.

حاولت أن أرى أمي بينهن ولكن الممرضين منعوني من الوصول إليها لأنهم كانوا مشغولين باستقبال الجرحى في المستشفى، فقفزت مع عسكريين في أخر السيارة وقد كانت متوجهة إلى مركز المدينة وعندما بلغنا نهاية منحدر الطريق بدأت أرى جثث الموتى على الطريق وحواشيها، كلهم جزائريون على أغلب الظن، يوجد بعضهم حتى تحت الأقواس، ولما وصلنا إلى شارع "كليمنصو" الرئيسي خاطبني السائق قائلا :" أين تسكنين" ؟

لم أجبه لشدة اندهاشي بما رأيت.

كرر علي السؤال وهو يبتسم، فقلت:" نهج قسنطينة". فقال: "ماذا تقولين..؟"، قلت ببراءة: "نعم أسكن في رقم 34 من نهج قسنطينة"، هنا توجه إلى زملائه: "إنها عربية، لقد خدعتنا". كانت سيارة الجيب تجري بسرعة فائقة في الطريق المملوء بالجثث. وعندها توقفت فجأة وقال لي العسكري:" إذهبي إلى الجحيم إهبطي بسرعة حتى لا أراك مرة أخرى".

كنت محظوظة كثيرا هذا اليوم.. فنظرت إليه مندهشة من سوء معاملته لي فجأة، فقد صار سيئا للغاية ودفعني خارج السيارة، ولم أتمكن من الحفاظ على توازني وسقطت على الأرض، وانطلق بسيارته وأنا ملقاة أرضاً لا أدري ماذا أفعل..؟؟

وقفت بصعوبة وأنا مندهشة لما أرى حولي، إنها مأساة مروعة! وتساءلت في نفسي: "ماذا حصل لي وماذا جرى لنا ؟ ماذا أفعل ؟ كيف أستطيع العودة إلى منزلي..؟".

فجأة سمعت طلقات النار من كل جانب، ورأيت بعض الناس يرفعون أيديهم في الهواء وقد أحاط بهم العسكر، ورأيت أيضا الناقلات تمر بسرعة أمامي، وقد ملئت بالشباب والكهول، تسبق صوت صفاراتها، ورأيت العسكر يدفعون أمامهم جموعا من الناس الذين كانوا مختبئين في المقاهي، ويضربونهم بمؤخرات بنادقهم ليصعدوا إلى تلك الناقلات.

ومن النوافذ المطلة على الشارع كنت أسمع بعض الأوروبيين وهم يصيحون: "أقتلوهم.. أقتلوهم كلهم فلاقة..".

كنت أسير كالآلة وكان الدم يتطاير من حولي فيلطخني عند مرور الناقلات العسكرية. كان الدم يتطاير من كل ناحية، والأسوأ في كل ذلك، أنه كان يلطخ حتى وجهي ويظلل عيني فلا أرى الطريق جيدا. وما زاد في ضيقي أنني نسيت منديلي في المستشفى ولم أستطع إزالة الدم، وكان كلما مسحته إتسعت البقع وانتشرت أكثر على يدي، فيستبد بي الرعب أكثر فأكثر.

وصلت أمام أحد المقاهي وإذا بناقلة تقف أمامي، وفي سرعة غريبة نزل منها العسكر وأخذوا كل من كان بها وأخذوني أيضاً مع هؤلاء الناس.

أخذت أبكي وأصيح، وكان الرد سريعا، فقد صفعني أحدهم بيده حتى كدت أفقد توازني.. ومرة أخرى كدت أسقط من الناقلة، وكان الحال أفضل لي من سماع أصوات المدافع وهي تدوي في السماء وطلقات الرشاشات تملأ الفضاء بدون توقف..



كان الجو ثقيلا سميكاً وأصوات الرصاص تتصاعد من كل ناحية..
الناقلة تهتز من شدة السرعة والمخاوف تغمر كل الوجوه والناس يتساءلون بعيونهم عما وقع، ويردد بعضهم الشهادة أو يبكي باحتشام، الكل كان منشغلا بمحنته، وليس هناك من أحد نظر إلي أو تساءل عن حالي، السؤال الوحيد الذي يقرأ على وجوهنا هو: "إلى أين نحن ذاهبون..؟" أما الجواب فعند كل واحد منا، وهو الخوف والوجوم.

على جانبي الشارع كنا نرى، ونحن في الناقلة، أناسا يمشون مصطفين وأيديهم مرفوعة، وصلنا إلى جادة "بارو" التي تنتهي عند مدخل ملعب "كوطالي".

أنا أحمل عن هذا الملعب ذكريات جميلة، فقد كان أبي يأخذني معه لنشاهد المباريات التي تدور بين لاعبي كرة القدم، لأنه كان عضوا في الفريق الرياضي الذي يحمل إسم" الشبيبة الإسلامية لمدينة سكيكدة"، وكان لا ينقطع في الحديث عنه أياما وأياما، قبل حتى أن تبدأ المباريات، وكان يعود إلى البيت مبحوحا كلما ربح في إحداها أحيانا يقضي ليلته إحتفاء بتلك المناسبة، وكأنه في عرس.. أذكر جيدا أن العرس دام عدة أيام، خاصة تلك المرة التي فاز فيها فريقه بالكأس.

في تلك المناسبة كان يركب سيارته السوداء وهي محشوة بالأنصار ولا يتوقف عن "التزمير" طوال الطريق، وكانت الأيدي تتداول الكأس بين الأنصار طول اليوم.

لا أنسى المرات التي كنت أجري فيها وأقفز على حشيش ذلك الملعب.. طيلة فصل الصيف كان بائع "الكريما" المثلجات، يقف وراء الصف الأخير من المقاعد المخصصة للمتفرجين، وكان يدور بلا توقف

بالأواني المملوءة بالثلج لتحتفظ المثلجات بأكبر قدر من البرودة، كما كان يمتاز بصنع الثلج المخلوط بالقارص الأخضر، الذي كنت أحبه كثيرا، فطريقة هذا البائع في تقديم الكريما لزبائنه طريقة خاصة، تتمثل في لحس كل ما يفيض على القرن مما يجعل لعابنا يسيل قبل الحصول عليها.

في كل يوم أحد، عندما يلعب فريقنا، كنا نلتقي في الملعب، الأولياء والأطفال، بنات وبنين.. نحن الصغار نتلهى بلعب خاصة بنا، كلعبة المربعات، القفز على الحبل، أو "الغميضة"، وعندما نسمع الصيحة الكبيرة تنطلق من الملعب، نسرع لنعرف من الرابح من الفريقين، والواقع أن كل ما كان يعنينا في ذلك هو التقاؤنا نحن الأطفال واللعب مع بعضنا.

كان بائع الثلج موجودا دائما في مكانه، يعرفنا جميعا وينادي كلًّا منا باسمه، كان لا يهتم بأسماء الفرق المتقابلة، بقدر ما كان يهتم ببيع مثلجاته، ومشروباته الغازية التي يدسها تحت الثلج لتبقى باردة. فهو لا ينفك ينادي الناس ليقصدوه:" تعالوا لتتذوقوا مثلجاتي المصنوعة ب"الفانيليا"، من ذا الذي يستطيع أن يُعد لكم ثلج الليمون أحسن مني.. ؟" كم كان سعيدا ومعتزا بنفسه!

كانت العربة التي تحمل له سلعته مصبوغة بألف لون ولون، وكانت العجلات الأربعة مشكلة من ألوان لماعة، وكان سقفها مغطى "بقماش" أزرق اللون، أما جوانب العربة فكانت مزينة بلوحتين بيضاويتي الشكل، وفي وسطيهما مزهريتين ملونتين بهما أزهار تحيط بها أشكال عربية.

كان بائع المثلجات جزءً من الوسط الجميل الذي عشت فيه وأنا طفلة، والآن هأنذا أصل في ناقلة عسكرية ولا أدري ما ينتظرني..

لقد أرغمونا على النزول عند الباب الرئيسي للملعب، ودهشت مم رأيت..؟ إنه يوم الحشر..!.

رجال واقفون عند السياج المحيط بالملعب وآخرون ممددون على الأرض، وآخرون مقتولون وقد كدست جثثهم في وسط ذلك الملعب الذي رأيته مرات ومرات، ولعبت فيه أحسن فرقنا، وكانت فيه الرياضة هي الملك المتوج.

كان الناس يلتقون فيه باختلاف دياناتهم وأجناسهم.. ووجدت نفسي أرتعش وغير قادرة على التقدم خطوة واحدة، تعثرت وشعرت فعلا بالخوف لأنني بدأت أفهم أن العسكر يقومون بإطلاق الرصاص على الأشخاص الذين يأتون بهم في الناقلات، يقتلونهم بدون تردد.. ورأيت، هناك، في الجانب الآخر من الملعب مجموعة من الأفراد يحفرون حفرة واسعة في عشب الملعب، تحت تهديد العساكر.

وفهمت بعد ذلك أن تلك الحفر هي مقابر جماعية تلقى فيها الجثث، فرائحة الكلس الحي تزكم أنوفنا..

حركة لا متناهية من الذهاب والإياب كانت تقوم بها الشاحنات المملوءة بالرجال الذين سيقضى عليهم، والذين يعدوا بالعشرات، تحت أعين العسكر.. إنهم يدفعوننا بأعقاب بنادقهم. وكنت ضمن مجموعة أوقفوها عند الحائط. لقد كنا محضرين للإعدام.

لم أعد أقدر رؤية ما يجري أمامي، فقد شعرت بدوامة تدور بي وتضغط على رأسي حتى الإنفجار، أما عيناي فقد غشيتهما الدموع، لقد كنت أتمايل ولا أرى إلا النهاية، أرفع إصبعي اليمنى وأتشهد في انتظار الموت. وقتها تذكرت جدي عندما كان يعلمني الشهادة منذ السنوات الأولى من عمري.



مجزرة 20 أوت 1955

لقد مرت أمامي تلك اللحظة في جزء من الثانية، كل حياة الطفولة المتتالية بكل ما فيها من أحلام. لا أدري لماذا يقتلوننا هكذا، لماذا ؟ وماذا فعلنا لهم ؟

كنت واقفة أمام سياج الملعب والرعشة تعصف بركبتي، عندما بلغني صوت كأنه جاء من عمق الأعماق، الصوت المعجزة، صوت لا يمكنني أن أخطئ صاحبه أبدا.

لست متأكدة إن كنت أهذي أو كنت ميتة، ولكني لما سمعته بدأت أشعر بالحياة تدب في جسدي وبالصوت يتأكد عندي شيئا فشيئا. أردت التعرف على الشخص الذي يناديني والذي أحسست نحوه بكثير من الرقة والمحبة، وكان كلما اقترب مني تحققت من ملامحه. وزال من رأسي ذلك الدوار الذي أصابني، كنت أرى بالضبط آمر الشرطة الفرنسي وهو يجري نحوي عبر الملعب صائحاً: "إنها طفلة، طفلة صغيرة" كان يرددها وهو يلهث ووجهه يزداد احمرارا.

عندهااستعدت وعيي، ولكن بقي كل شيء يدور حولي وقلبي يكاد يطير من صدري، لقد بدأت أشعر من جديد بجسمي، بوجودي وبالحياة دون أن أصدق نفسي.

عندما أدركت أنني لم أنتقل إلى الآخرة انفجرت بالبكاء في حالة من الهستيريا دون توقف، ثم اختلط علي البكاء بالضحك دون احتشام.

إلى جانبي، هناك من أدركه الموت وهناك من يئن وزفرات الموت تتصاعد منه، وهناك من يجهز عليهم العسكر بالضربة القاضية وهناك وهناك... ولكني.. كنت مغمورة بحب الحياة وبنجاتي من هذه الكارثة.

كل ما كنت أريده هو الخروج من هذا الجحيم. هاهو آمر الشرطة أمامي لينقذني. إنها المعجزة ! إنني لا أصدق عينني..! إنه هو! هو بالذات.. لم أنس لا خطواته ولا صوته الخشن ولا بطنه المنتفخ ولا مشيته الشبيهة بمشية البط.

جرى نحوي ومد إلي ذراعيه قائلا: "تعالي يا صغيرتي، تعالي صغيرتي.. صغيرتي المسكينة!"

قلت:"ها أنت سيدي ! ما أ سعدني! أخذني بين ذراعيه وضمني إلى صدره بقوة حتى كدت أختنق، ثمّ قبلني على شعري وعلى جبهتي وأخذ يدي وقبلها أيضا، فازداد تأثري بكل هذا الحنان..

"شكرا سيدي!.. شكرا"، قلت له. ورد علي:" لا، لا تشكريني! أنا الذي يجب أن أطلب منك العفو! العفو..! العفو..!"

وشرع في البكاء بصمت.. مرة أخرى لم أفهم لماذا يبكي، لماذا يطلب العفو؟ هذا كثير علي..!

في نفس اليوم، وقعت لي أحداث أخرى كثيرة..!، أنا، لم أعد قادرة على إستيعاب كل هذا..

ويكرر هو:"عفوا، عفوا".

و أقول:"ولكن لماذا أعفو عنك ؟ أنت الذي أنقذت حياتي !"

اكتفى بالإجابة:"المهم أنك حية بيننا".

"أجل إنني سعيدة وسعيدة جدا بهذا".

رفعني ووضعني في سيارة الشرطة وانطلق بقوة.

لا زلت أسمع الرشاشات تطلق رصاصها من كل صوب، الأزقة خالية إلا من مركبات عسكرية وجنود يقطعون الطرق.

كانت الساعة قد قاربت على السابعة مساء.. النهار ما زال طويلا فنحن في شهر أوت.. وما زال بعض (الأوروبيين) من الأقدام السوداء

المسلحين يجوبون الشوارع بحثا عن العرب. والجثث ما زالت مرمية في الطرقات..

بدأ الضباب الذي كان يغشى بصري ينقشع شيئا فشيئا. فأخذت أنظر حولي وأتعرف على محيطي ولكنني لم أعد أره مثلما كان في السابق.. شيء ما قد تحطم في داخلي تاركا نفسي في بؤرة بالغة العمق..!

لم أكد أخرج من فاجعة الملعب حتى دخلت في فاجعة أخرى.. وكلما اقتربت من مسكني ازدادت صورة المنظر بشاعة وحزنا. الدم مازال يسيل من رأسه والصناديق مبعثرة هنا وهناك.. إنه بائع السمك ذلك المرمي على سمكه، وغير بعيد عنه بائع المثلجات وقد حاول أن يختبئ وجسمه مثقب بالرصاص.. إنه المحيط الذي كنت أعيش فيه يوميا: بائع السمك، بائع الغلال، بائع المثلجات، إنهم الناس الذين كانوا يعرفونني ويختارون لي أحسن الأشياء عندما أتسوق عندهم. كل هذا تكسر وزال من الوجود ولم أعد أشاهد إلا الموت والدمار.

آمر الشرطة يطلب مني أن لا أنظر ولكنني لا أقدر لأن الواقع أقوى من كل شيء.. كان الفزع يتملكني وأنا لا أملك إلا سؤالًا واحدا: "لماذا كل هذا؟"، لكن ليس لي من جواب. إلا صمت طويل يحول بيني وبين منقذي.. ووصلنا إلى نقطة قريبة من منزلي فتوقفت المركبة، وحينها أخذني آمر الشرطة من يدي وقال لي وهو يودعني بحنان :"كوني قوية يا بنيتي واذكري بكل بساطة أنك خرجت حية ولا تذكري الموت الذي شاهدته..! إغتنمي الحياة وادخلي بيتك ولا تخرجي منه مهما كان السبب. والآن مع السلامة". ثم قبلني للمرة الأخيرة.

نزلت من المركبة وأنا أنظر إليه عبر الزجاج. ودعني بإشارة بيده اليسرى. ولم أقابله بعد ذلك ولم أعرف حتى اسمه وهذا ما يؤسفني جدا.

مرة أخرى وجدت نفسي وحيدة حائرة وسط الحرب. قلبي منقبض، منقذي تركني وحدي وسط الجثث والخراب.. خفت أن أتقدم خطوة ! ترددت وأنا أنظر إلى الأرض تحت قدمي الملطختين بالدم. إنهما ترتعشان. إنني الآن عند مدخل نهج قسنطينة ولست أقترب من نهاية متاعبي.

وظللت هنا واقفة واجمة محتارة. ثم شعرت بنوع من السكون وأنا أسمع الزغاريد تتعالى من كل مكان، فكلما أمعنت النظر في الرشاشات وهي تمزق زرقة السماء، ازدادت الزغاريد قوة وامتدادا.. ووجدتني أقول لنفسي:" إن الزغاريد عادة تطلق في الأعراس، لكننا نحن في مأتم والأموات في كل مكان.. فلماذا تزغرد النساء..! إنه أمر غريب..! بل إن الأمر غير مفهوم.

أتقدم بتردد، فأرى أبواب الديار كلها مفتوحة على مصراعيها، والنساء تخرج منها(كان أمرا مدهشا..) إنهن ينتحبن وفي نفس الوقت يطلقن الزغاريد.

طوال مسيرتي المرتعشة، التي حاولت أن أجد فيها ممرا أمر منه بين تلك الجثث.. ومباشرة بعد توقف إطلاق المدافع فوجئت بالنساء يخرجن من بيوتهن وقد شجعهن صمت المدافع، وكن يحملن قطعا من الجرائد، وبعضهن يحمل المناشف والبعض الآخر يحمل ملاحف قديمة، إنها كلها قطع تصلح لتغطية الجثث.

واصلت مسيرتي وكأنني مخدرة، شعرت وقتها بأن أي شيء لم يعد بإمكانه إصابتي بضرر وأنني سأعيش إلى الأبد ولن يدركني الموت

حتى ولو اخترقت جسدي ألف قنبلة.. وفجأة سمعت خليطا من طلقات الرشاشات والزغاريد والعويل، إنها الحرب التي تصدمني اليوم بكل فظاعتها بالرغم مما أوتيت من براءة. ويعاودني نفس السؤال، "لماذا لا أرى إلا جثث الجزائريين تغطي الشوارع..؟"..

أتذكر الآن، أنني في الصباح كنت قد سمعت الشاب يصرخ بصوت عال:"الله أكبر، الله أكبر". ولكنني وقتها لم أدرك معنى تلك الصيحة.

اقترب من دارنا، وككل الأبواب الأخرى كان بابنا مفتوحا على مصراعيه. في الفناء وجدت النساء يبكين وينتحبن على رجالهن خارج البيوت، والذين قد أدركهم الموت بلا شك.. قالت لي إمرأة عجوز : "ألم تري ميتا طويل القامة..؟ " وأجبتها بتعجب: "ميت طويل".

" نعم إسمه عبد الله، لا يمكن أن تتعرفي عليه إلّا من طوله".

صحيح إن إبنها طويل جدا وكان عليه أن يعود إلى بيته في منتصف النهار، ولكن أنّى لي أن أتعرف عليه بين العديد من الجثث. حاولت أن أتذكر كل الأشياء التي رأيتها، وفكرت طويلا بينما كانت تنتظر جوابي وفي النهاية أجبتها:"لا، لم أره".. كان زوجها وهو عامل متقاعد في المرفإ يترقب جوابي ثم قال: "إذا مات سيكون شهيدا، من الأحسن أن تزغردي و تترحمي عليه". في ذلك اليوم إكتشفت الحرب بكل معانيها وبما فيها من فظاعة ووحشية، كما اكتشفت معنى القدر الذي يضفي على الإنسان الطمأنينة والإيمان الراسخ بالله.

قضينا الليل كله من السبت إلى الأحد في حي تغشاه النار ويكسوه الدم، بينما يسمع من بعيد أصوات المدافع، وبقينا صائمين

يومين كاملين.
وطيلة هذا الوقت لم يبلغنا أي خبر عن أمنا، كما لم يبلغها عنا أي خبر. لا أحد سألني عن كيفية نجاتي من الموت، وكأن كل ما يهم الناس هو إحصاء الموتى والباقين على قيد الحياة.
وبقينا كذلك، جوعا ورعبا، نتمشى في المنزل كأننا سكارى، "ماذا عملنا لله حتى نجازى بهذا العقاب ؟ إنهم سيبيدوننا جميعا".. هذه الجملة ظل يرددها أحد جيراننا الذي يعمل مساعداً في الناقلة وهو يدور حول نفسه.. وهكذا كان يزيد من قلقنا وتشاؤمنا.
(يوم 22 أوت، قررت النسوة أن يحضرن بعض الكسرة، لقد حان الوقت، وكدنا نسقط أرضاً من شدة الجوع، لقد إستمرينا على قيد الحياة، ولكن هذه السعادة، بدأت تتلاشى أمام حيرتنا المتعاظمة.. فقد أصبح خارج الدار مبهم ويشكل خطرا، فمن هم الأحياء؟ هل يمكننا الخروج دون أن نقتل..؟).
الجنود يملأون منعرجات الشوارع، وصرير عجلات العربات المملوءة بالجثث يصم الآذان.. فقد كانت الجثث تسحب نهارا من هنا وهناك، وقد بدأ تحللها يبرز للعيان.. ورغم مرور خمسة أيام على جمعها، فقد بقي عدد كبير منها متراميا.. رأس مقطوعة، قدم ملوحة، يد معلقة ترقص على رنات العربة التي يجرها العربي..!
مساء اليوم السادس، هاجم العساكر الحي وهم في حالة من الهستيريا والترقب، وبصوت صارخ ينصبون سلاحهم" البازوكا" في الأركان الأربعة للحي، ثم يصوبونه نحو النوافذ، هنا طفح الكيل، كثير.. هذا كثير..؟؟.
الإنفجار كان عاما، فقد بدأ كل الناس في الصراخ، في البكاء..

صراخ اليائس، فيخترق سكون الليل.. كل الأمهات اللائي لم يعد أبناؤهن بعد، وكل النساء اللائي لم يعد أزواجهن بعد، يصرخن بأعلى أصواتهن.. جانبت النافذة وبدأت في الصراخ معهن، متأثرة بما رأيت وما عانيت، وهنا خاطبني أحد الجنود "ألا تسكتين، يا صغيرة.. أصمتي وإلا أطلقت عليك النار..!"

من كل النوافد يسمع صراخ النساء المتحدي، أما أنا فكنت أصلي عندما جاءت أختي من الخلف لتسحبني من قدمي فأجد وجهي يسحب فوق الأرض وأنفي يسيل بالدماء، كانت تشد في رأسي وتثبتها على رخام الأرضية ثم تمددني وتتمدد إلى جانبي، وهكذا نبقى ممددتين في انتظار القذيفة التي ستخترق السقف وتطير بنا كان أنفي يؤلمني، ويد أختي المتصلبة مثل الفولاذ تزيد من آلامي.. فقد كانت أسناني تصدك من الخوف، وفي نفس الوقت كنت أحس بارتعاش ركبتي أختي واصتدامهما مع الأرض.. ثم بعد لحظات من الزمن، وكأنها الدهر، يغادر العسكر الشارع بجلبة وتحت صرير دباباتهم التي تصم الآذان...

وبقينا نحن بلا خبر عن أمنا.

وسنعلم بعد ذلك أن العساكر جاؤوا إلى الشارع بحثا عن الناس الذين فقدوا أوراقهم "الثبوتية" وظلوا مختبئين في مطعم صغير "للمشويات" يقع إلى أسفل منزلنا، طيلة خمسة أيام دون أكل أو شرب.. لقد مزق العسكريون أوراقهم فصار أصحابها دون هوية وبذلك سيقتلونهم بلا تردد.

شيئا فشيئا أخذت الحياة تعود إلى مجراها، ولكن كثيرا من الأشخاص ألقي بجثثهم في مقابر جماعية ولم يستفيدوا من دفن مشرف.. وكانت عائلاتهم تضمد جراحها بالتحلي بالصبر

أما أنا فإن محنتي مرت دون أن يشعر بها أحد.. المهم بالنسبة للجميع هو أنني نجوت من الموت، وأما ما عشته فليس بالمهم، وأما الآلام فإنها تتجدد كل يوم وعند كل الناس.

طيلة ليال وليالي، كنت أستيقظ من نومي مرتعشة من الكوابيس المخيفة. كنت أفطن من نومي فأجدني غارقة في عرق بارد مصحوبا بأوجاع مبرحة في الصدر، وخفقان سريع في القلب كأنني تلقيت للتو ضربة مميتة.

ولم أعد أقدر على الخروج وحدي في الليل.. كنت أتخيل الجثث مرمية في كل مكان.. وظلت أنات الموتى ترن في رأسي لعهد طويل ثم ومع الأيام أخذت تزول من مخيلتي تدريجيا كوابيس مناظر الملعب الجهنمية.

يجب القول كذلك بأن الأحداث كانت تتلاحق بقوة في ذلك الزمان، وأن آثارها كانت عميقة جدا في ذهني.. آثار طبعتني إلى الأبد. وستكون الحافز الحقيقي لمستقبلي النضالي.. وشاء القدر أن أعيش حربا أخرى لا تقل فظاعة ودموية وظلما (حرب الإرهاب بين عامي 1991 _ 1998).

بعد أيام قلائل من ذلك الرعب، علمنا أن المجاهدين قد قاموا بهجوم على محجرة "فيل فيلا"، التي يستخرج منها الرخام، والمعروفة باسم " المحجرة الرومانية"، كما هجموا أيضا على منجم "العالية" الذي يستخرج منه الحديد، ويقع هذان المنجمان في أعالي سكيكدة، وكانت ردة فعل المستعمرين أكثر وحشية وأكثر قساوة ولا علاقة لها بالإنسانية، فقد قتل في ذلك الهجوم واحد وسبعون أوروبيا،

ويشاع أيضا بأن آلاف الجزائريين قد لقوا مصرعهم.

Cinq terroristes philippevillois jugés par le tribunal militaire de Constantine

Deux condamnations à mort, dont une par contumace

Les événements sanglants qui se déroulèrent le 20 août 1955 à Philippeville, ont été évoqués, hier, devant le Tribunal permanent des forces armées de Constantine. Ce jour-là, vers 12 heures 45, MM. Jean Michel et [illegible] revenant de la plage du Lido, rentraient vers la ville lorsque, arrivés devant les [illegible] du [illegible]



Hafsi Rachid, ben Mohamed, le jeune terroriste de [illegible] ans qui le 20 août 1955 à Philippeville, tira des coups de feu sur MM. Jean Michel et André [illegible], et qui, hier, a été condamné à la peine de mort par le Tribunal permanent des forces armées de Constantine. (Photo « Dépêche »)

[illegible], ils rencontraient cinq [illegible] [illegible] en sens inverse. L'un d'eux, s'adressant à M. Jean Michel, lui demanda l'heure, tandis que le jeune homme poursuivait son chemin sans répondre. C'est alors que le musulman tira dans sa direction un premier coup de revolver qui l'atteignit au bras, puis quatre autres coups sur M. Michel, et deux autres sur son beau-frère, M. André [illegible]

[illegible], distante plus loin, à une centaine de mètres de là, M. José [illegible] qui arrivait de [illegible] à bord de son camion et s'apprêtait à entrer son véhicule dans un garage, voyait un individu jeter sur son camion une bouteille d'essence. M. [illegible] se lançait à la poursuite de l'agresseur, mais se trouvait tout à coup en présence d'un autre individu qui, armé d'un revolver, faisait feu sur lui à deux reprises, l'atteignant au thorax et à l'abdomen.

M. [illegible] venait à peine de s'écrouler qu'un autre individu armé d'un fusil de chasse tirait deux coups de feu en direction de la porte du commissariat.

Quelques jours plus tard, M. Jean Michel, qui s'apprêtait à s'embarquer avec sa famille à destination de la Métropole, reconnaissait dans une file de musulmans qui attendaient leur tour pour les formalités de douane, celui qui, le 20 août, l'avait attaqué quelques heures plus tôt. L'individu, le nommé Hafsi Rachid ben Mohamed, âgé de [illegible] ans, [illegible] ferrailleur, demeurant à Philippeville, [illegible] rue [illegible], fut appréhendé et mis en état d'arrestation. Mis en présence de MM. [illegible] et Santos, il était formellement reconnu comme l'agresseur.

Après avoir nié, puis affirmé qu'il s'agissait peut-être de son frère [illegible] qui lui ressemble beaucoup, Hafsi Rachid reconnaissait les faits et livrait les noms de ses complices, les nommés Lessak Hanid [illegible] Ali, [illegible] ans, commerçant, demeurant à Philippeville, [illegible]; Hamdane Brahim ben [illegible], [illegible] ans, demeurant [illegible], rue de la [illegible]; Boudjemaa [illegible], [illegible] ans, demeurant [illegible]; et Zeifa Mohamed ben [illegible], [illegible] ans, apprenti tôlier, demeurant [illegible], rue [illegible].

Ces quatre malfaiteurs, qui ont rejoint les rangs rebelles après [illegible], n'ont pu être retrouvés.

Les débats

Inculpé de tentatives d'assassinat, Hafsi Rachid a comparu, hier matin, devant le Tribunal permanent des Forces armées de Constantine. Ses quatre complices étaient jugés par contumace.

Interrogé par le lieutenant-colonel Lederlin qui dirigeait les débats, Hafsi Rachid, revenant sur les aveux passés devant la police et le juge d'instruction, est revenu sur ses précédentes déclarations, niant [illegible] les faits qui lui étaient reprochés et prétendant qu'il se trouvait à son domicile le jour du 20 août.

Or, comme le fit remarquer le Président Lederlin, l'inculpé fut arrêté ce jour-là en ville au cours d'une rafle, puis relâché après vérification d'identité.

Me Touscoz, défenseur de l'inculpé, dépose des conclusions pour demander au Tribunal de constater l'existence d'une nullité sur la procédure. Il fait observer, en effet, qu'un procès-verbal d'interrogatoire a été raturé et qu'en conséquence, cette rature non approuvée enlève à la pièce, sa valeur, [illegible] force probante.

Le Tribunal, constatant la réalité de cette observation, donne acte à l'avocat de ce nul, [illegible] de soumettre à la Cour de cassation l'appréciation de la conséquence et de la portée de cette nullité.

Réquisitoire

Après l'audition des témoins, le capitaine Ddoux, substitut du Commissaire du Gouvernement, prononça son réquisitoire.

« La culpabilité de Hafsi Rachid est, selon moi, absolument indiscutable en ce qui concerne les coups [illegible] contre M. Jean Michel, mais cependant moins démontrée en ce qui concerne le second attentat.

« Quoi qu'il en soit, après le témoignage formel de M. Jean Michel, il n'y a pas de place pour le doute pour les cinq inculpés.

« Je demande donc au Tribunal de retenir la culpabilité de Hafsi Rachid, coupable de tentatives de meurtre contre MM. Michel et [illegible], ainsi que la complicité des quatre autres terroristes.

« Je demande l'application rigoureuse de la loi et requiers la peine capitale pour Hafsi Rachid et pour Lessak Hanid qui arma le bras meurtrier. En ce qui concerne les trois autres complices, je demande des peines de travaux forcés à perpétuité. »

C'est à Me Touscoz, du Barreau de Philippeville, qu'incombait la lourde tâche de défendre Hafsi Rachid. L'avocat philippevillois essaya de montrer avec fougue la fragilité des charges qui pesaient sur le jeune inculpé.

Le jugement

Cependant, les juges militaires ne se laissèrent pas convaincre et après en avoir délibéré, sont revenus à 17 h. 30 avec le jugement suivant : Hafsi Rachid et Lessak Hanid sont condamnés à la peine capitale, le second par contumace.

Hamdane Brahim, Boudjemaa [illegible] et Zeifa Mohamed sont condamnés tous trois aux travaux forcés à perpétuité par contumace.

الفصل الرابع عشر

ماي 1956

أصدرت الجبهة إلى الطلبة أمراً بالإضراب العام. وكان يجب أن يطبق هذا الأمر بصفة جماعية سواء في الجزائر أو في الخارج. كما كان على الطلبة أن ينظموا صفوفهم وأن يظهروا انضمامهم إلى القضية.

عددنا كان قليلا نحن الطالبات المسلمات في الثانوية. وقد اتفقنا على أن نحضر أمام الثانوية عند الساعة الثامنة صباحا. ونرفض الدخول إلى صفوفنا.

المراقبات والأساتذة لم يهتموا كثيرا بهذه الحركة وتركونا بكل احتقار في الخارج. أما نحن فقد صممنا على إبراز انتمائنا وبدأنا ننشد بالعربية.

والواقع أننا وصلنا حد الإستفزاز. وفجأة شرعت إحدى البنات في إخراج الطباشير والكتابة بخط عريض في فناء المدرسة. ولم نكن نهتم لما كانت تكتبه. لكن عندما رفعنا رؤوسنا أصابنا الذهول.. إن ما كتبته لا يُعقل ولا يخطر على بال في ذلك الوقت. كانت الكلمات تتراقص أمامنا كأنوار الإحتفالات. أحسست أن ما قرأته لا يصدق لدرجة أن شعوراً غامضاً جعل حلقي يجف : " تحيا فرنسا الجزائرية". حتى نحن المناضلات والمتعاطفات بل المقتنعات بالقضية. أدركنا أن الأمر غير معقول. لكن البنت بقيت ترقص فخورة وتدور حولنا ويداها على ردفيها وهي تصيح : "من يتجرأ أن يقول العكس.. ؟ لا أحد ..؟

كانت الدهشة عامة وبدأ الكل ينشد الأغاني الوطنية وكأننا صرنا نحلق من شدة الفرح.

كم كنا سعيدات بإحساسنا وكأننا استولينا على العالم، أو أننا استعمرنا فرنسا أو أن النار اشتعلت في نفوسنا.

QUATRE JEUNES TERRORISTES philippevillois devant le Tribunal permanent des Forces armées de Constantine



Les jeunes terroristes : de gauche à droite : Zouiem Ahmed, Slimane Tichtich, Boudardara Sebti et Bouas Mohamed. (Photo « Dépêche »)

Le 24 avril 1956 vers 21 heures 15 une grenade F.1 était lancée dans le bar « Marcel », situé rue Georges-Clemenceau, à Philippeville. Le dangereux engin explosait près du comptoir et les éclats blessaient partiellement M. Raymond Sitzias, Mme Veuve Marcel Boals, propriétaire de l'établissement, était blessée légèrement.

Quelques minutes plus tard, une seconde grenade était lancée rue Arcole, à quelques mètres d'un [illegible] sans victime, ni dégâts.

Trois jours plus tard le 27 avril 1956 vers 20 heures 15, alors qu'il rentrait à son domicile rue du Grand-Orient, M. Charles Evangéliste essuyait trois coups de feu tirés par un individu qui le suivait depuis quelques instants. La victime de cet attentat n'était fort heureusement atteinte par aucun des projectiles et se réfugiait chez des voisins tandis que son agresseur prenait la fuite en abandonnant sur les lieux une cartouche de revolver de 8 m/m.

L'enquête ouverte par la Police mobile et le service des renseignements de la Police d'Etat de Philippeville amenait l'arrestation du nommé Bouas Mohamed ben [illegible], dit « Hamoudi », âgé de 20 ans, apprenti mécanicien.

Bouas Mohamed reconnaissait formellement être l'auteur du jet de grenade au bar « Marcel », et dénonçait les membres du groupe terroriste dont il faisait partie. Tous les autres [illegible] appréhendés : Zouiem Ahmed ben Messaoud, âgé de 17 ans [illegible] demeurant à Philippeville [illegible] rue [illegible] ; Boudardara Sebti ben Mohamed, dit « Cassam », âgé de 2[illegible] ans, journalier [illegible] demeurant faubourg de l'Espérance, et Slimane Tichtich Hadir ben Ahmed, dit « Tintin », journalier, âgé de 2[illegible] ans, demeurant 37, route de Saint-Antoine.

Bouas Mohamed désignait également comme chef du groupe le nommé Benmoussa [illegible] ben [illegible], âgé de 24 ans, qui ne put être retrouvé par la Police.

Le 24 avril, il s'était écoulé deux ou trois minutes entre les deux explosions, laps de temps suffisant pour permettre aux terroristes de parcourir les 250 mètres séparant le bar « Marcel » des maisons de tolérance.

Par ailleurs, un témoin a formellement reconnu Bouas Mohamed comme étant l'un des auteurs du jet de grenade de la rue d'Arcole. Il n'est donc pas douteux que les inculpés ont participé, tous les quatre, au premier comme au second attentat.

Les débats

Zouiem Ahmed, Boudardara Sebti, Mohamed et Slimane Tichtich ont comparu, hier matin, devant le Tribunal [illegible].

Les débats étaient dirigés par le commandant-colonel Lederlin.

Bouas Mohamed est revenu sur les aveux passés devant le juge d'instruction et a nié toute participation aux attentats.

Le jeune Boudardara Sebti prétend qu'un enfant, reconnaît, devant les juges militaires avoir tiré trois coups de revolver sur M. Evangéliste [illegible] ainsi les aveux passés devant le juge de l'instruction. Cependant, est-ce par crainte ? Il a le souci, devant ses juges, de ne pas accuser ses complices qu'il prétend, contrairement à ce qu'il déclara au juge d'instruction, n'avoir jamais rencontrés. S'il reconnaît son crime, sa franchise ne va pas jusqu'au point d'accabler les autres terroristes.

Un supplément d'information décidé

Le président Lederlin passe, ensuite, à l'audition des témoins. Et c'est alors qu'est porté à la connaissance du Tribunal un fait nouveau et important !

[illegible] des témoins entendus fait [illegible] [illegible] que la [illegible] [illegible] a transmis le dossier de l'affaire à la Justice militaire, [illegible] des forces de l'ordre [illegible] dans la région de Philippeville ont découvert des documents parmi lesquels figure un cahier tenu par un chef rebelle et qui prouve incontestablement l'appartenance des quatre jeunes inculpés à un groupe de terroristes.

En conséquence, le Commissaire du Gouvernement demande au Tribunal que l'affaire fasse l'objet d'un plus ample informé. Ce réquisitoire est approuvé par les juges militaires. Le Président prononce donc la clôture des débats et l'affaire est renvoyée pour un supplément d'information.

R. E.

TROIS TERRORISTES PHILIPPEVILLOIS condamnés à mort par les juges militaires de Constantine

Ils étaient les auteurs de plusieurs attentats à la grenade et au revolver



De gauche à droite, Zouiem Ahmed, [illegible] Mohamed, [illegible] Boudardara Sebti, et Slimane Tich-Tich [illegible] respectivement [illegible]

Cinq terroristes ayant commis des attentats à Philippeville, ont été jugés, samedi matin, par le Tribunal permanent des Forces armées de Constantine.

Le 24 avril 1956, vers 21 h. 15, une grenade F. 1 était lancée dans le bar « Marcel », rue Georges-Clemenceau à Philippeville. L'engin explosait près du comptoir et blessait légèrement Mme Marie Camilleri, veuve Marcel Boals, propriétaire de l'établissement. Un consommateur, M. Raymond Sitzias, était partiellement blessé.

[illegible] minutes plus tard [illegible] grenade, à proximité de [illegible] de tolérance Perlins, sans causer ni victime, ni dégâts.

Trois jours plus tard, le 27 avril 1956, vers 20 h. 15, alors qu'il rentrait à son domicile, rue du Grand-Orient, M. Charles Evangéliste essuyait trois coups de feu tirés par un individu qui le suivait depuis [illegible] instants. La victime de cet attentat, [illegible] n'était atteinte par aucun des projectiles et se réfugiait chez des voisins tandis que son agresseur prenait la fuite en abandonnant sur les lieux une cartouche de revolver de calibre 8 m/m.

Suite page 3

Leur temps de volontariat militaire en Algérie terminé les députés Le Pen et Demarquet rentrent en France

DE NOTRE CORRESPONDANT PARTICULIER A SETIF

Leur temps de volontariat dans les forces armées chargées du maintien de l'ordre en Algérie terminé, les députés Le Pen et Demarquet rentrent en France.

On sait que M. Demarquet, sous-lieutenant de parachutistes coloniaux il y a quelques semaines, a participé aux opérations en Egypte, et que M. Le Pen, lieutenant légionnaire [illegible], a fait partie du [illegible] [illegible] général Massu à Alger [illegible] après des mois de service volontaire sont venus rentrer en France, tels que [illegible]

الفصل الخامس عشر

أخذت الشائعات تنتشر بسرعة. الأمر بالإضراب العام، الذي أطلقه المجاهدون، أصبح شاملًا كل السكان.. كل المتاجر مدعوة إلى إغلاق أبوابها، وكل الجزائريين مدعوون إلى أن يتجندوا كرجل واحد، وأن يبرهنوا للعالم أجمع على تصميمهم على نيل استقلالهم مهما كان الثمن.

في كل البيوت، لم يكن أحد يتكلم إلا عن هذا الموضوع، الثورة تتأجج في نفوس المواطنين الذين لم يعودوا يطيقون الزجر والظلم والإعدامات الفورية، إضافة إلى ذلك كان على كل إنسان أن يختار معسكره وانتماءه.

قبل التاريخ المحدد للإضراب قام المجاهدون بعمل جبار لإعلام الناس بالأمر عبر" التلفون العربي" الذي يشتغل على أحسن حال، وبلغ الإستنهاض العام ذروته..

في اليوم الموعود وهو يوم 26 جانفي 1957، قررت أغلبية السكان المسلمين في منازلهم، وكان معظم السكان المسلمين في المدينة من سكان حينا الذي أصبح مركزها الفعلي.

في الصبيحة بادرت المحلات التجارية والمقاهي العربية والحمامات إلى إغلاق أبوابها.. وكان أصحابها يقفون أمامها بصمت وعزيمة ترفض فتحها.

وكما كان متوقعا، سارعت المركبات العسكرية وسيارات الجيب إلى احتلال الحي، وكالعادة قفز الجنود من مركباتهم بدويّهم المعهود وهم يهددون بإعداد أسلحتهم وتوجيهها إلى الناس..

توزع العسكر في الشوارع، وأخذوا يضربون بأعقاب بنادقهم، كل شخص يلتقون به.

وبكل دقة شرعوا في فتح المحلات التجارية بقضبان الحديد والكلاليب وأعقاب البنادق.

وعندما يمتنع صاحب المتجر عن فتح محله ينهالون عليه بالضرب ويكسرون باب محله.

عادة يبيع التجار في محلاتهم، زيت الزيتون في جرار كبيرة، وهو ما يسمى بالزيت العربي. وأما الزيت المعصور من الفول السوداني فهو ما يسمى بالزيت الفرنسي، وهو الأقل استعمالا والأغلى ثمنا. ونظرا إلى أن المتاجر ليست غنية بالبضائع، فإنها لا تبيع إلا السلع الضرورية.

يتوزع هؤلاء العساكر على هذه المتاجر، ويبدأون بإلقاء تلك المواد على الأرض ثم خلطها لتصبح غير صالحة للبيع أو للإستعمال.. ترى اللوبياء والبسلة "الجلبانة" مبعثرة مع الزيت والسميد، وهكذا.. يثقبون الأكياس برماحهم ويلقون كل شيء على الأرض ويدوسونه بأحذيتهم، وأخيراً يتلقى صاحب البضاعة الضرب المبرح والشتم.

وبطبيعة الحال فإن هؤلاء التجار يشعرون أن عذابهم هيّن لأنهم كانوا يخشون التعذيب والقتل. لم يكن يرتفع صوت أو شكوى، وكل ما كنا نسمعه هو كسر الأثاث وأصوات الأواني المعدنية.. ناهيك عن التجديف والشتائم الصادرة عن الضباط. وكنت أشعر بالبغضاء والكراهية والثورة تسري في عروق الناس وتعصر قلوبهم .. وهكذا فإن الأفراد القلائل الذين لم يؤمنوا بالقضية أصبحوا أشد الناس وأقواهم تصميما على الانتقام.

الفصل السادس عشر

يسكن "عبدل" مع عائلته في غرفة مقابلة لشقتنا، وهو الثالث بين عدد من الأولاد، ميزته أنه مصاب بلحمة زائدة في حلقه لذلك كان يتنفس من فمه فقط، ويصعب عليه لفظ كثير من الحروف، وكان أباه طبيبا تقليديا يشتهر بمعالجة هذا المرض.. وكان الناس يأتونه من كل مكان، وأما إبنه عبدل فإنه لم يجد لنفسه مكاناً بين الناس.

خاصيته الثانية أنه كان يتكلم كثيرا رغم تلك العاهة، فهو طويل القامة، كثير الضحك والفكاهة، ويحكي عادة النوادر المضحكة، ويبيع نوعا من "الليموناضه"، لكنه كان يشرب الخمر أحيانا ويرجع إلى داره يترنح ويغني يا ليل..؟.

وفي ذلك الوقت يجد أمه في انتظاره بعصا غليظة، وكان يعلم مسبقاً أنها تنتظره، ولذا فهو يرسل الأولاد قبله ليتأكد هل نامت أم لا.. ؟ فهو يحب كثيرا أمه ويحترمها أكبر احترام، وعندما يتأكد أنها لا تترقبه وراء الباب فإنه يخاطر بالدخول.. ورغم هذه الحركات الحذرة فإنه يترقب منها الضرب ولذلك فهو ينحني ويخبئ وجهه وينتظر العقوبة.

تبدأ أمه بالتوبيخ:" أنت خيبة العائلة" وتقرن الكلام بالفعل، مستعملة العصا ومتألمة حين تراه سكران.

ويجيبها:" بما أعدك أنني لن أعاود مرة أخرى".

وترد عليه:" نعم أعرف كذبك ووعودك".

وهكذا تشفي أمه غليلها، لكنه لا يتحرك ولا ينبس بكلمة.

كنا نعيش زمن الحرب كما هو معلوم. وكما جرت العادة فإن العساكر يزوروننا في كل مساء ويبدأون بتفتيش منازلنا. وكالعادة فإنهم ينزلون علينا بالضرب من هنا وتكسير الأبواب من هناك. ينصبون مدافعهم في الشوارع وكذلك رشاشاتهم. وتأتي مركباتهم محملة بالجنود المتحمسين لتطهير الحي بيتا بيتا؟

يكسرون ويضربون ويدوسون كل ما وقع في طريقهم. أما نحن فكنا نرتعش من شدة الخوف ونختبئ في زوايا الغرف. يدخلون بيتنا ويفتحون الخزانة ويلقون كل ما يجدونه فيها على الأرض. أما أمي فإنها تنظر بحسرة إلى ما يفعله العسكر بترتيبها وتنظيمها ولثيابنا الفائقة النظافة.. أخرج أحد الجنود غطاء المائدة المطوي في الخزانة ورماه على الأرض ليمسح به حذاءه العسكري الغليظ.. وكانت أمي تنظر إليه كاتمة غيظها ملتزمة الصمت. وبعد انصرافهم جلست وأخذت في البكاء وبين يديها غطاء المائدة المتسخ. كانت تشعر بالإهانة والتحقير مما دفعها إلى الإستمرار فيما بدأه الجنود الفرنسيون من خلط المواد الغذائية: الدقيق مع السميد. والجلبانة اليابسة مع الحمص. وقد بللتها الدموع المنهمرة على خديها.

لقد تأثرت أيما تأثر وأنا أشاهدها تبكي.. ومن شدة العجز لا يبقى أمامي إلا الإختفاء في ركني حتى تمر الزوبعة.

كنت أشعر بأن المهم بالنسبة لي هو أننا مازلنا أحياء.. وأما ما عدا ذلك فلا يهم. ولكني لم أدرك أن أمي كانت تبكي من الغبن أمام الواقع المر الذي نعيشه.

في ذلك الوقت استمر الجنود يؤدون نفس العبث والتكسير عند

الجيران ـ وهو الوقت الذي اختاره عبدل للتمثيل علينا عندما أطلق صوته المزعج:" أتركوني أقتلهم، لقد مللت".
في اللحظة ذاتها شعر أهله بالخطر يهددهم إذا لم يسيطروا على صيحاته، فارتمت عليه أخته الكبرى وأطبقت فمه بإحدى يديها واستعملت اليد الأخرى لوضع رأسه تحت ركبتيها.
أما أمه فقد لجأت كعادتها إلى العصا الغليظة وبدأت تضربه، وأقبلت أخته الثانية لإبقائه مطروحا على الأرض، إلا أن كل هؤلاء النساء لم يتمكنوا من السيطرة عليه، فقد كان يحاول استعمال كل قوته ليخرج شيئا من جيبه.
عندئذ وصل أخوه واستطاع السيطرة عليه واضعا يدا من حديد على فمه، بينما كانت أمه مستمرة في الضرب على رأسه محاولة الضغط على اليد التي يسعى بها إلى إخراج شيئ من جيبه، وأقبل كل جيران الطابق متلهفين لانتظار ما سيخرج من جيبه. الجميع يترقب في حيرة وتلهف، ماذا سيخرج من جيبه..؟ أكيد إنه مسدس، وإذا حدث ذلك فإنها ستكون النهاية بالنسبة للجميع، إذ أن العساكر سيعدموننا جميعا عندئذ.
ساعدنا يارب...
إنه يتمتم شيئا ما..؟ ولكن رأسه كان ملتصقا بالأرض ولا أحد يفهم ما يقوله، كل أفراد عائلته منكبون عليه وهو مستمر في مسعاه.. لم يعد الإنتظار محتملا، ومع ذلك فكل الناس في انتظار النتيجة..! ماذا سنكتشف..؟ إنه سلاح بلا شك، وفي اليوم الذي حضر فيه العسكر..!
كان الصمت مخيما على الجميع ولا أحد يتجرأ على التفسير، عبدل هو الشخص الوحيد الذي يتمتم تحت ضغط ركبتي أخته

الكبرى ـ أما أخوه فلم يتمكن من إخراج الشيء المجهول بالسهولة التي كان يتوقعها، لأن عبدل يعطله بحركاته المقاومة. كان يتلوى كالثعبان ولم نعد نطيق الانتظار.

فجأة أعلمنا الجيران الواقفون على شرفة الطابق أن العسكر قد غادروا المنزل، فتنفسنا الصعداء والتفت الجميع إلى عبدل.

تشجع الأخ الأكبر بعد مغادرة العسكر وعنف أخاه بقوة أكبر محاولا سحب يده من جيبه، وبعد ضربات أخرى موجعة، تمكن من إخراج السلاح المخبإ في جيبه. لقد كانت سكينا صغيرة. إنفجر المتجمعون كلهم صياحاً واحمرت عينا أمه وأخذت تضربه أكثر مما فعلت في الأول، وفي هذا الصخب العام ارتفعت صيحات البكاء الهستيري من بعض النسوة من شدة الهلع والخوف اللذين بلغا أشدهما بالنسبة لكل الحاضرين. بينما انفلتت أختاه ببكاء عنيف وأخذتا تتمرغان إلى جانبه.

سيطر علينا إحساس بالخيبة بعد أن رأينا هذه السكين التافهة.. كل هذا الغضب وكل هذا الإنهيار العصبي من أجل شيء تافه. لقد نجح عبدل في السيطرة علينا جميعا إلى حد أننا كنا نفضل أن يكون الأمر بالغ الخطورة حقا. لقد شعرنا جميعا بالخيبة لأن عبدل كان ينوي تهديد العساكر بسلاحه. فهل كان حقا يريد الوقوف في وجه قوة غاشمة بسكينه ؟ إنما الأعمال بالنيات كما يقال.

الفصل السابع عشر

اليوم يوم أحد. والحي يعج بالناس الذين يتسوّقون، بينما الجنود يروحون ويجيئون في الشوارع مصحوبين بكلابهم المهيأة للهجوم، كان الأولاد يمرحون جيئة وذهابا، وكان الباعة ينادون على سلعهم، بينما الجالسون في المقاهي يخبطون بأحجارهم على طاولة "الدومينو" آملين أن يربحوا قليلا من النقود. وفوقهم كانت مكبرات الصوت تصيح في كل مكان حاثة السكان على الإخبار عن قطاع الطرق والخارجين عن القانون:"يجب التبليغ عنهم للشرطة وللجنود لأنهم سيدفعون بكم إلى المهالك والضرر".

ثم يتوقف الصوت، وتبدأ الأغاني البدوية التي يحبها سكان البادية مصحوبة بالناي والطبلة.. ثم يرتفع الصوت من جديد: "إنكم فرنسيون وستظلون فرنسيين، فابقوا أوفياء لفرنسا وستكون هي بدورها وفية لكم، كلنا فرنسيون من "دانكيرك" إلى "تمنراست".

هذا الخطاب، الناطق بالعربية الدارجة وبأصوات الخونة، معروف لدى جميع الناس، فحتى الأطفال يرددونه ويهزأون منه بحركات قبيحة في اتجاه مكبرات الصوت.. هذا ما نسمعه يتردد كل يوم.

كنت عائدة من السوق بقفتي وكانت المسافة بيني وبين المنزل خمسون مترا تقريبا عندما تفاجأت بدوي في أذني، طلقة نار كانت من القوة ومن القرب ما جعلني أشعر أنها موجهة إلي.. وفي نفس الوقت سمعت صوتا ينادي رجلا:"خذ هذه يا خائن".. رميت القفة من يدي فنثر كل ما فيها على الأرض، ورأيت الضحية تسقط أمامي بثقل كبير معترضة طريقي.. كان يلبس جبة بيضاء ويحمل

طاسا من الحليب.. سقط على جبينه وأخذ الدم يسيل على صدره مختلطا بالحليب.
انتشر الخبر بين المارة الذين شرعوا في الهروب في كل اتجاه. بينما بقيت أنا أتأمل في القفة المبعثرة محتوياتها وأتصور غضب أمي علي.
لم أكن أدرك خطورة الوضع، ونظرا إلى أن حالتنا المادية ليست على ما يرام، فإنني صممت على ألا أعود فارغة اليدين.
أضف إلى ذلك أن الأموات كانوا يسقطون كل يوم. فيجب إذن أن أعمد إلى التقاط الخضر التي سقط عليها الرجل المسن.
إنحنيت عليه وجذبت ذراعه من تحت جسده، ولكن عندما أدرت الجثة ولاحظت نظرته المتوقفة، شعرت بضربة سكين في قلبي، جمدني الخوف لحظة، ولكني تمكنت من تحريك ركبتي والجري إلى منزلنا.
هناك أنبتني أمي، ليس بسبب الخضار كما توقعت، بل بسبب ما تعرضت له من خطر على حياتي بالبقاء في نفس المكان الذي وقع فيه الحادث.. أما الصدمة وأثرها في نفسي فإن أحدا لم يلتفت إليها.

AVIATION ET ARTILLERIE

sont entrées en action

au djebel Amar-Khadou pilonné et mitraillé par 24 chasseurs-bombardiers

Sept morts (dont deux officiers) **chez les paras**

L'hélicoptère de liaison (avec à bord, le colonel Ceccaldi)

s'écrase au sol

Pas de victimes

Dégâts matériels

"Champlain"

الفصل الثامن عشر

إنه مجنون الحي وكلنا ينظر إليه بالابتسامة والرفق. الأطفال يجرون وراءه أو يدفعونه أو يستفزونه. وهو يتظاهر وكأنه يطلق عليهم مدفعا رشاشا، فيسخرون منه خاصة وأنه لا يتوقف عن ذلك.

كان يروح ويجيء حاملا عصا كان قد وجدها في الطريق، ويبدأ بإطلاق زخات في كل الإتجاهات.. إنه يجري وعيناه شاردتان من شدة الغضب وقوة حماسه للقتل. أحيانا يصرخ ولكننا لا نشعر بالخوف منه. لكن الأطفال وأمام تحركاته في الطريق، يحملونه محمل الجد ويتظاهرون بالفزع والسقوط على الأرض وكأن الرصاص قد أصابهم.

وكان يشعر بالسعادة ويدور على نفسه ويأخذ في إطلاق الرصاص من جديد وكأن الأرض كلها تحت رحمته. وعندما كان يشعر بأنه قضى على الحي كله، يلقي سلاحه على الأرض وينصرف بهدوء وارتياح كأنما قام بواجبه على أحسن وجه.. هذه اللعبة تتواصل منذ أسابيع، والناس لا يعاملونه بخبث بل بشفقة، بينما يعامله الأولاد بوحشية أحياناً.

قصة هذا المجنون سببها فقدان عقله أثناء الحرب، نتيجة صدمة مخيفة..

كان يملك مزرعة صغيرة ضمن حقل زيتون، وكان يسكنها مع عائلته الصغيرة، مكتفيا بما تدره عليه من ربح قليل. الواقع أن العيش في الريف يتطلب الكثير وحين يبدأ جني ثمار الزيتون يأتي أقاربه من المدينة ليساعدوه مقابل مكافأة تتمثل في لتر أو

لترين من زيت الزيتون تحتفظ به الأمهات طوال العام لمعالجة أبنائهن في حالات المرض الخفيف.

وأثناء الهجوم على المنطقة أتت النار على كل شـــيء: " شجرات الزيتون احترقت والمزرعة الصغيرة هدمت والعائلة قضي عليها ونجا هو بأعجوبة من ذلك الهجوم، ولكن الآثار المؤلمة ظلت عميقة. فقد بقيت تلك الصور الوحشية راسخة في ذاكرته إلى الأبد. ومنذ ذلك الحين بقي تائها في حين كان يشعر بشيء من الآمان.. ليس خطيرا على الناس ولكنه عندما كان يمر شخص أمامه وهو يقلد بصوته طلقات الرشاش، فإنه يشعر بالخوف.. وكنا نعلم أنه كلما كانت هناك تجمعات من المارين كان في الغالب هو سببها.

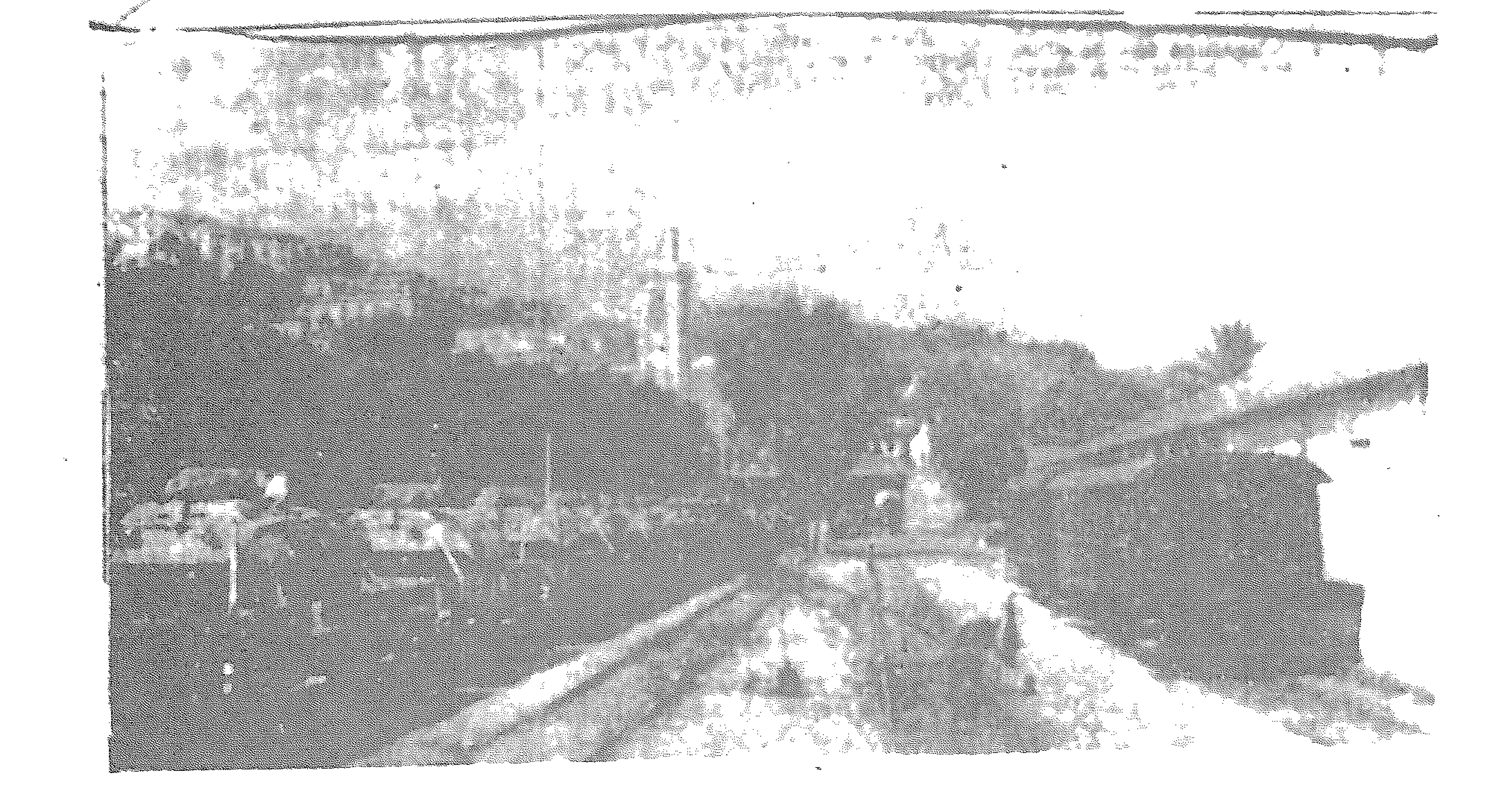
في بعض الأحيان يلقي عليه الأطفال الحجارة فيرد. عليهم بما يشبه إطلاق النار ثم ينصرف راضيا عن نفسه. وعندما صدر الأمر بمنع التجول صار كل شخص يسير في الشارع إبتداء من ساعة معينة معرضاً للقتل.

وفي إحدى الليالي، مرت في الشارع دورية من العسكر، وكان هو في ذلك الشارع لسوء حظه. فأمرته الدورية بالوقوف، ثم في نفس الوقت أطلقت الرشاشات النار لتمزق صمت الليل، وحينها سمعنا صيحة لم تضيع في الفضاء.. إنه صوت مجنون الحي، لقد سقط ضحية الرصاص، لقد مات مثلما ماتت عائلته برصاص الجنود، وكما أراد أن يموت هو في مخيلته.. لقد مات بدون ذنب، لكنه قام بحركة في لحظة غير مناسبة كان ينبغي أن لا يقوم به.

تألمنا لموته جميعا خاصة وأنه لم يحظ بدفن لائق به. فقد دفنته البلدية على جناح السرعة.

RENFORTS MILITAIRES POUR LE NORD-CONSTANTINOIS

D'importants renforts en hommes et en matériel ont été dirigés sur le Nord Constantinois et débarqués à Philippeville. Voici, sur le cliché du haut, plusieurs dizaines d'auto-mitrailleuses, débarquées de l'« [illegible] » et acheminées par voie de terre vers les points stratégiques environnant Philippeville. Sur le cliché ci-dessus, les troupes sont débarquées du « Gouverneur général Chanzy » et rassemblées sur les quais.



الفصل التاسع عشر

كنت خارجة من الثانوية عندما اقترب مني شاب قائلا:" إنني أكلمك باسم الجبهة".. ولم أفاجأ في واقع الأمر، حيث أنني كنت أتوقع ذلك الإتصال في قرارة نفسي، إنني أسكن في حي مشهور بانتمائه الوطني، وفهمت بسرعة ماذا ينتظرون مني. أشار إلي أن أتبعه داخل أحد الأبواب وسلمني ورقة مكتوبة بالعربية، وقال لي: "ترجمي لي هذه الرسالة في أسرع وقت، وسأعود إليك غدا في نفس الوقت، وأرجوك أن لا تتكلمي بهذا الشأن مع أي كان واعتبري نفسك منذ الساعة عضوا في الجبهة".

فأجبته: "موافقة".

ارتعشت قليلا، ولكني كنت أشعر بالفخر وبالتضامن مع القضية ومع هذه الحرب، ارتعاشي جاء من كوني شاهدت أفرادا يعودون بوجوه مشوهة أو بقوى منهارة أو بجروح تمزق أجسادهم وتجعلهم غير معروفين.. إن واجبي كجزائرية يلزمني ويملي علي أن أساهم في القضية، فمنذ صغر سني تشبعت بفكرة الإسلام وبفكرة الجزأرة، كما أن كل الناس كانوا يناضلون من حولي، كلٌ بطريقته وكل حسب إمكانياته.

إن انتمائي كان واضحا، خاصة بعد تلك الأشياء التي شاهدناها وعشناها، تلك الأشياء التي تدفعنا إلى الثورة وثورة المظلوم رهيبة كان أبي أثناء زيارتنا إلى أرض الجدود، ومنذ كنت صغيرة جدا، يلقنني حب الأرض قائلا:" أذكري يا بنيتي الصغيرة أن الجزائر هي بلادنا وأننا ننحدر من قبيلة اسمها قبيلة "بني مهنا".

وهي قبيلة كانت تعيش في جبال "القل" ثم نزلت في القرن السابع عشر إلى منطقة سكيكدة. لقد كانت أراضيها تنتشر على مناطق سماها الفرنسيون بعد غزوهم "فالي، دامريمون ، غاستونفيل" وكان جدنا يحمل إسم "امحمد الحدادي" لا تنسى ذلك أبدا.

هذه الذكريات التي تلقيتها عن أبي، كانت ترفع من زهوي، ولكنني ازددت فخرا باتصال المجاهدين بي، وعندما عدت إلى المنزل، وأنا أحمل هذه المشاعر، لاحظت أمي في عيني بريقا غير عادي فقالت: "ماذا حدث لك ؟"

أجبت بمرح:" إتصل بي الإخوة"، "ماذا ؟".. "نعم إتصل بي المجاهدون ".. فصرخت: "يا إلهي.. وبماذا أجبتهم؟"

" لقد قبلت".

أقعدتها الصدمة وتشحب وجهها ثم قالت: " أنا التي وضعت فيك كل آمالي، سيقتلك الفرنسيون، أليس هناك ما يكفي من الرجال حتى يتصلوا بك أنت ؟".

تغلبت طبيعة الأم وحنوها على المشاعر الوطنية، رغم أنها كانت تدخل في مناقشات مع جارنا "بوحداد" الذي يعمل في الحدادة، وكانت تعلق بحماس وحرارة على الحوادث الجارية. عندما كنت أسمع كلامها كان يبدو لي أن الإستقلال آت بلا شك ولا تردد، وشككت في أن جارنا كان من أكبر الناشطين وأنه هو الأصل في مبادرة الإتصال بي.

ولكن أمي الآن أمام ما يهدد حياة ابنتها، فهي ممزقة بين الشعور بالواجب والشعور بالحب لابنتها.

وهكذا كنا نعيش بين المد والجزر، بين الإعتداءات والتوقيفات، كثيرا

ما تحدث هجمات الشرطة. وقد وقعت كثير من التوقيفات بين الجيران. خاصة بعد منتصف الليل. فهم يأتون إلى المنازل ويطرقون الأبواب ويأخذون المشبوهين ثم ينصرفون. ويحدث أن يعود الأشخاص الموقوفون بعد أيام. في حالة يرثى لها من شدة التعذيب. بينما لا يظهر للآخرين أدنى أثر.

كانت الإتصالات مستمرة دائما بالأخوة أمام الثانوية. يطلبون مني ترجمة الرسائل إلى العربية. وهكذا صرت أعلم كثيرا عن النشاطات السرية التي يقوم بها المسبلون والفدائيون وعن اتصالاتهم بالمقاومين في الجبال. وشيئا فشيئا أصبحت في عداد الحركة السرية. ودامت هذه الحالة لأكثر من سنتين ثم صار الإتصال يتم في المنزل.

الحياة مستمرة بصفة عادية في الحي. فقد تعودنا على الحملات المباغتة. كان الجنود الفرنسيون يتمركزون في أطراف الشوارع ويحيطون بالمنازل.. وعندئذ تخلو تلك الشوارع من المارة بصفة فجائية. ويبدأ الناس في الركض في كل اتجاه. ثم يختبئون في أي مكان. بينما تغلق الأبواب وتنزل الستائر.

في تقاليدنا. لا يدخل أبدا أجنبي إلى دار لا يعرفها. لكن هذه القاعدة لا تنطبق على بعض الحالات الخاصة. فالأبواب تفتح والأشخاص الذين لا يحملون أوراقا ثبوتية يمكنهم الدخول ليختبئوا في الممرات حتى عودة الهدوء. كانوا يتراوحون ما بين العشرة. والخمسة عشر.. وحالما يغادر العسكر الحي. تُفتح الأبواب وتعود الحياة إلى طبيعتها. وهكذا كان الناس في كل يوم ينذرون بعضهم البعض بالكلمة أو بصيحات خاصة أو بالتصفير. وعندها يذوب المارة في الطبيعة.

لم تكن تغيب هذه الحيل عن العساكر ولكنهم لم يكونوا يقدرون على الدخول إلى كل منزل وكل متجر. وهكذا يرفعون الحصار دون الوصول إلى أهدافهم.

إنها الساعة التاسعة ليلا. حين فاجأتنا القوات الفرنسية بضرب الحصار على الحي.. كان العساكر يقفزون من مركباتهم ومن سيارات الجيب ويتوزعون بسرعة في الشوارع ثم يبدأون بطرق الأبواب.. ورفع الستائر.

كان باب بيتنا لا يغلق. بطبيعة الحال. لعدم امتلاكه لمفتاح. وكان يجب أن نجد وسيلة لإغلاقه. ولكنه كان يجب عقد اجتماع بالسرعة المطلوبة لاتخاذ القرار العظيم. والقرار كان هو الإلتصاق بالباب بقوة ومنع العساكر من الدخول إلى الدار حسب وصية الأكبر سنا. ولكن كيف..؟

قالت العجوز:"يجب على محمد وفضيلة ومسعود والصغير يزيد. أن يدفعوا الباب من الداخل بكل قواهم وأن لا يتزحزحوا عن مكانهم لكي يمنعونهم من الدخول".

امتثل المعنيون للأمر والتصقوا بالباب. يسندونه بكل قوة واقتناع. وظلوا كذلك طيلة ساعة أو أكثر من ساعتين.

ماذا يمكننا أن نفعل بأيد عارية ضد الأسلحة. ما عدا أن ندفع الباب الخارجي؟

وبعد مدة طويلة انطلقت صرخة:" لقد ذهبوا. لقد ذهبوا والحمد لله ! لقد ذهبوا دون أن يدخلوا بيتنا..".

والتفتنا إلى الوراء ففوجئنا بمنظر غريب وعجيب..! خالتي خيرة وأختي وثلاثة آخرون يسقطون علي الأرض في غيبوبة عميقة. فرششنا عليهم إناء من الماء أيقظهن في الحال. وهو المنظر الذي

جعل الجميع يغرقون في الضحك طوال الليل. تحول الخوف إلى فرحة كبيرة بخروجنا أحياء وبصحة جيدة من تلك المحنة. ولكننا لاحظنا في اليوم التالي أن القفل لم يهيأ وهذا ما شكل بالنسبة لي سرا محيرا. إننا نعيش حربا وفي خوف دائم يكوي أمعاءنا. والموت يترقب كل شخص في هذه الدار. ومع ذلك فإن السكان لا يعتنون بهذا المفتاح الذي يضمن لنا حياتنا.. إنني لن أفهم أبدا منطق الكبار؟..

الفصل العشرون

أصبحت دار خالتي التي تقع في الطابق الثالث ملجأ لجميع الجاورين للحي، وهي عمارة تتكون من أربعة طوابق ترجع ملكيتها لعجوز أوروبية، تسكن غير بعيد عن دارنا.

خالتي هذه متزوجة من مفتش بوليس مما يعنى أن الإحتماء في دارها ضمانة كبرى، أما الطابق الثالث من العمارة، فكان يسكنه أحد أعوان المباحث الأشد شراسة في المدينة، يظهر الشر من منظره الخارجي فهو طويل القامة كثيف الحاجبين ذو نظرة فولاذية، يزرع الرعب في الناس، ولا يكتفي بذلك، بل يصحب معه دائما كلبا ضخما مدرّبا مستعدا لافتراس الإنسان العربي.

كانت الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد، وكان الناس، في ذلك اليوم، يجوبون الشوارع بارتياح. وكنت أنا واقفة في شرفة خالتي أستعرض المارة، عندما سمعت طلقتي رصاص تحول الشارع بعدهما بسرعة إلى ميدان جري وركض، نتج عنه رجل ممدد على الأرض، تجمع الناس على الشرفات والنوافذ بينما أسرعت سيارة الإسعاف والشرطة، ووصل العسكر إلى المكان، وبدأوا باحتجاز كل من يعثرون عليه في طريقهم، وبتفتيش المنازل والمتاجر والمقاهي وحتى الحمامات. ودامت العملية قرابة الساعتين عاد بعدها الهدوء إلى الشارع..

طلبت خالتي من ابنتها أن تحضر القهوة حتى نسترجع أنفاسنا، فرافقتها، إبنة خالتي، إلى المطبخ الذي تنقصه الإضاءة الطبيعية، ولما كنت أهم برفع المائدة فوجئت بمجهول جالس بكل هدوء في ركن مظلم من المطبخ فصحت: "خالتي، خالتي، هناك رجل

في المطبخ".

وأسرع زوجها الذي كان على الشرفة، فقام له الرجل المجهول بكل هدوء وجرى بينهما حديث خافت.. أما أنا فقد بقيت في مكاني محتارة.

طلب عمي منا أن نغادر المطبخ، لم يكن غاضبا على ما يظهر بل متعاونا مع الشخص.. وكان واضحا أن الشخص استغل حالة الإرتباك العامة واندس في صفوف الفارين إلى أن دخل العمارة دون أن يراه أحد.. يبدو لي أنه هو من أطلق النار على الضحية، وفي غمرة الفوضى العامة توجه إلى المكان الذي يختبئ فيه حيث لن يفكر أحد في التفتيش عنه هناك.

لقد اختار ملجأه وبكل ثبات، في البناية التي يسكنها أشد المفتشين بطشاً، شرب قهوته وارتاح في البيت قرابة الساعة وعندما عادت الأمور إلى مجراها غادر المنزل بكل هدوء كما دخله.

كنت لم أزل عند خالتي عندما وقعت عملية أخرى، إذ خرجت جارة تسكن البناية المقابلة تجري وبين يديها قدر "طنجرة الشوربا" الذي كانت بصدد إعداده، فعبرت الطريق ودخلت لتحتمي عندها.. كانت المرأة خائفة ملطخة بالشوربا وهي تجري وتتعثر وتلهث، وكادت مرارا أن تسقط مغشيا عليها، وهي تهرب لم تنس شربتها، فكانت كلما صعدت "درجة" سلما، كلما ضربت الطنجرة بالدرج فترن القدر رنات خاصة تعطي لصعودها نغماً موسيقيا.

وبعد مشقة كبيرة وصلت إلى الطابق الثاني، ومع كل ارتعاشها فإن طنجرتها ما زالت بين يديها، وعندما تنفست الصعداء بوجه محمر من شدة الخوف ومن رشات المرق، كانت ما زالت تكرر بصوت مرتعش: "الحمد لله لقد وصلت إلى هنا، لقد وصلت إلى هنا ،

لقد نجحت".

ولكنها ظلت متمسكة بوعائها إلى أن عمدت خالتي إلى اقتلاعه من بين يديها.. وبقيت هذه الحكاية كسابقاتها حكاية نتسلى بها في سهراتنا، وفهمت بعد ذلك أنها أحسن طريقة للتغلب على الخوف.

وفي صبيحة يوم آخر، وقعت عملية أخرى، فبينما كانت أمي تغسل الثياب في فناء المنزل، أخذ الناس يجرون في جميع الاتجاهات واختلط الحابل بالنابل، فأغلقت الأبواب وتدخل الجيش والبوليس كالعادة وبدأت التوقيفات والتفتيش وكثرت العمليات البوليسية ضد المارة، وظلت الأمور كذلك طيلة ساعتين تقريبا، ثم عاد الهدوء إلى حاله، وأصبح الناس أيضا هادئين. وعندما التفتنا إلى المكان الذي كانت أمي فيه لم نجدها، بل لم نجدها في أي مكان آخر من الدار، فأين ذهبت ؟...

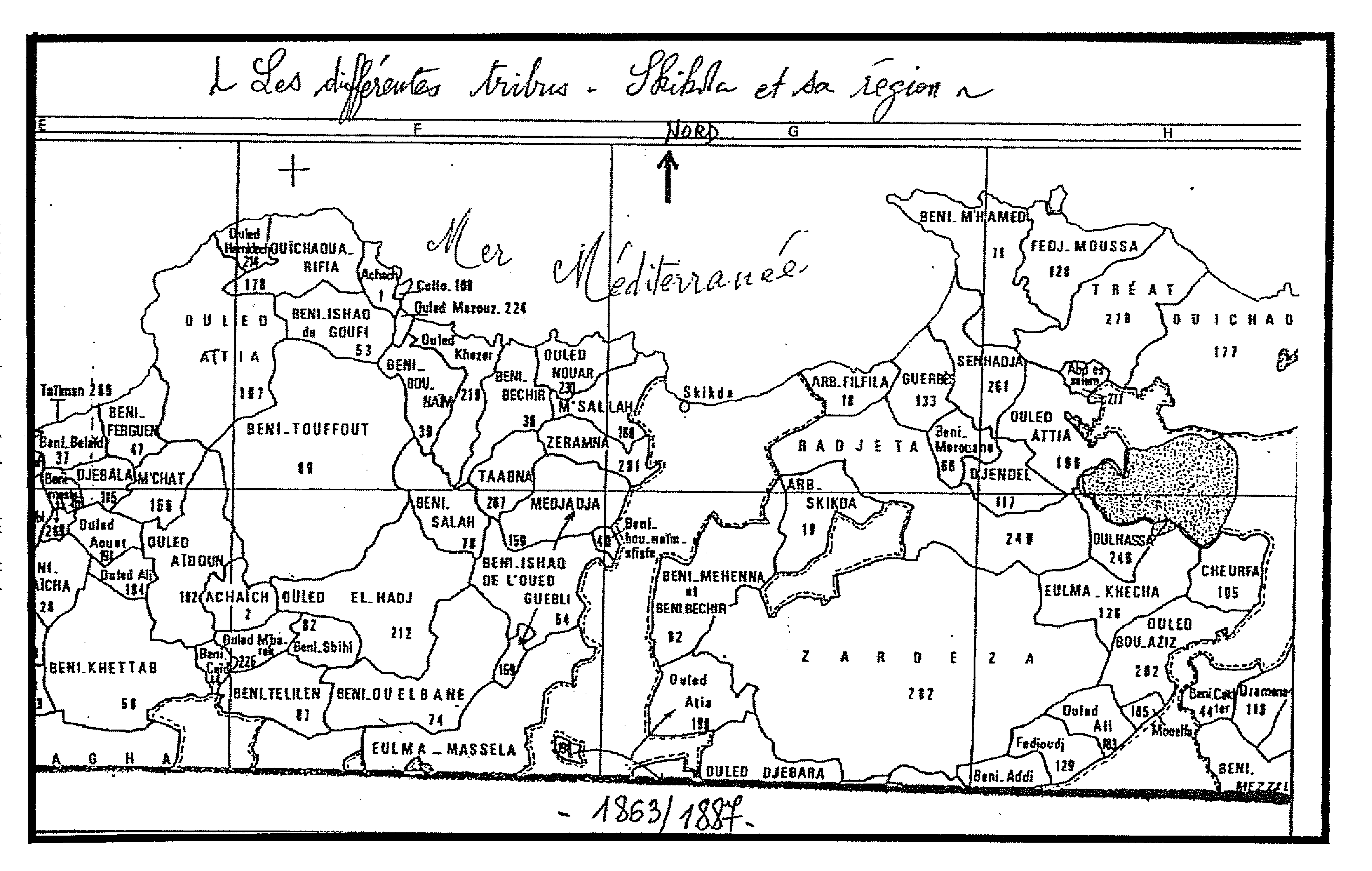
ولما بدأنا نشعر بالخوف عليها ظهرت عند الباب وهي تحمل قصعة الغسيل، وقالت:" إن الخوف قد دفعها من حيث لا تشعر إلى الخروج والإلتجاء إلى الدار المقابلة". فقد عبرت الشارع ودخلت دار الجيران حاملة معها قصعة الغسيل.. لقد دفعها الخوف إلى فعل أشياء غير معقولة بتاتا..!

وفي يوم آخر كنت في الشارع عندما انطلق الناس يجرون ويبحثون عن ملاجئ. وككل الناس أخذت أجري، ودخلت أول محل مفتوح وجدته أمامي، وتواريت عن الأنظار مع أشخاص آخرين تحت طاولة كبيرة، حيث جلسنا القرفصاء.

وفي الخارج استمر إطلاق النار بينما نحن نرتعش رجالا ونساء وأطفالا. وعندما عاد الهدوء رفعت رأسي ورأيت العجب: "سكاكين

طويلة وسواطير موضوعة على قطعة من جذع شجرة تصلح كطاولة لجزار، ونحن دون شعور كنا جالسين تحتها.

فركت عيني فوجدت رجلا مختبئاً إلى جانبي، مما أدخل الرعب في نفسي، خفت أن يذبحني ذلك الرجل مستغلا وحدتي في ذلك الموقع حيث ظننت أنني في آمان، ولما رآني الرجل فهم ما كان يخالجني، فطمأنني في الحال. وعندما رفع الجزار الستارة أسرعت إلى الهروب من ذلك المكان.



مجمل القبائل - سكيكدة ونواحيها 1963-1987م

الفصل الواحد والعشرون

أرض أجدادنا كانت موطنا يسكنه دائما المنحدرون من أصولنا، كانت في طفولتي تبدو لي بعيدة جدا، أما اليوم فإنها لم تعد بعيدة حيث تقع بيننا على بعد لا يتجاوز العشر كيلومترات.

وعندما كان يعلمنا أبي أننا سنقوم بزيارة قصيرة أو نقضي بضعة أيام في تلك الأرض، كانت تغمرنا فرحة كبيرة ونشعر بالاغتراب. وقليلا ما كانت تشاركنا أمي وأختي في الرحلات، إلا أنهما كانتا تتكفلان بإعداد ما يلزمنا من ملبس ومأكل للطريق. يشتري أبي قطعة كبيرة من اللحم في تلك المناسبة ويضع على رأسه قبعة مصنوعة من القش وننطلق في الصباح الباكر لنقوم بزيارة أقاربنا وخاصة أرض أجدادنا.

نركب حافلة قديمة، تلج بنا وبصعوبة كبيرة طرقا ملتوية في الجبل، ولذلك كثيرا ما كان يصيبه العطل، وعندما كنا ننزل لنساعد السائق على دفع الحافلة، وبعد محاولة إعادة تصليح محركها، كنت أستغل ما يصيبها من عطل لأتأمل الطبيعة الجميلة، واقطف الزهور بأنواعها المختلفة، في الوقت الذي يدفع فيه المسافرون الحافلة الهرمة.

وعندما كنا نصل إلى المحطة الأخيرة، كان علينا أن نجد في السير على أقدامنا عبر المسالك الصاعدة، ويطلعني أبي على أشجار الزيتون ويشرح لي كيف يقوم الكبار بتحويل تلك الحبة الصغيرة من حب الزيتون إلى زيت مفيد، لنعالج به أوجاعنا ونتغذى منه بكل شهية، وكيف أنه يعتبر هذه الشجرة عطاء من الله.. وكان يبين لي كيف نداوي بزيتها جميع الأمراض تقريبا وكيف أنه مرغوب

من الجميع ويصلح لإعداد الطعام، وأن النساء يدهن به شعورهن لتقويتها وتزيينها.. ولا يتوقف أبي عن الحديث عن الزيتون وعن إبراز منافعه وهو ينظر بحب إلى تلك الشجرة، ثم يشير بيديه الإثنتين إلى الأفق وهو يقول:" هذه الأراضي كانت ملكا لقبيلتنا".

وعندما ينتابني التعب يرفعني أبي على كتفيه ونستمر في المشي ونحن نغني بعض الألحان. ونظرا إلى أنه قوي لا يحس بالتعب فإنه كان يجتاز بنشاط تلك المسالك الصاعدة ويطلب مني، وأنا على كتفيه، أن أراقب ظهور زوارنا.

وكنت كلما رأيت منزلا صحت فرحا فيتوقف ويضعني على الأرض وأجري نحو المزرعة التي يسكنها بنو عمومته. فهي مزرعة كبيرة تتألف من عدة مساكن تحيط في شكلها المربع بفناء واسع. به من ناحية إصطبلًا واسعا مخصصا للماشية، ومن ناحية أخرى زريبة ثانية مخصصة للدجاج والطيور، وأخيرا حديقة خاصة بالخضر الصالحة لتغذية هذه العائلة الكبيرة.

وما يعجبني على الأخص، هو تلك الأكوام من العلف التي كنا نختبئ فيها أثناء اللعب والجري.. كان هناك أيضا كثير من الأكواخ ولكننا كنا ننزل عند عمنا الأكبر فقط، الذي يعيش معه أبناؤه الستة المتزوجون، إنه عميد العائلة.

وبصفة عامة يسعى أبي إلى توقيت زياراته مع عملية "التويزة"، وهي في تقاليدنا عبارة عن عمل ينجز جماعيا.

أماالحصاد فيتم ضمن العائلة وبمساعدة الأصدقاء ويجري بتجنيد الرجال والنساء والأطفال في جو من الحبور والسعادة، فالنساء يغنين من الصباح إلى المساء بينما يستمر العمل..

تنظم التويزة من مجموعة سكنية مع مجموعة أخرى ويقوم بذلك التنظيم كبار القوم الذين لا ينتقلون إلى المدينة إلا نادراً.

وعندما يزورون المدينة فإن ذلك كان يشكل حدثا ويتم بمناسبة الأعياد أو أثناء راحة الأسبوع، فيقومون بشراء الملابس للنساء والأطفال دون التمييز بينهم ولذلك يلاحظ على سكان المزرعة لبسهم المتشابه، نفس الألوان وبنفس الطريقة.

أما أثاث البيوت فهو يعتمد على أقل ما يمكن، المطبخ صغير ويتألف من بعض الألواح الغليظة التي توضع عليها الأواني المصنوعة في الغالب من الفخار، والملاعق المصنوعة من الخشب، وهناك وسط المطبخ أو في البيت "أثفية" قائمة على ثلاثة أعمدة تعلوها قربه مصنوعة من جلد الماعز وهي مخصصة لمخض الحليب، وإلى جانب ذلك، هناك القصعة المصنوعة من جذع شجرة البلوط، والتي يتم فيها إعداد الكسكسى باليدين، وتوجد مقاعد صغيرة رتبت حول مائدة مستديرة لتقديم الطعام لأفراد العائلة، تصنع أحيانا "عند الميسورين" من الإسمنت.. وأما الغرف فإنها قليلة الأثاث والتهوية، فهي عبارة عن بعض الفتحات التي تفتح في الحائط بدل النوافذ.. أما السرير فمشكل من ألواح يوضع كل منها إلى جانب الآخر، تتكئ كلها على جذوع من الشجر، وتغطى بجلود الغنم وبعض الأغطية الصوفية المصنوعة باليد.

وفي آخر البيت يوجد صندوق مصنوع من الخشب ومصبوغ بألوان زاهية تتخذ شكل خطوط وأزهار، وهو ما يمثل عادة مهر العروس، قد يشكل مخبأ للأشياء النفيسة التي تملكها العائلة، ولذا فإنه يقفل بمفتاح كبير.

قضيت كثيرا من العطل في هذه المزرعة وكنت اشعر فيها براحة

كاملة بالرغم من قلة وسائل الرفاهية، وعندما كنت أستيقظ في الصباح كان يجب علي أن أنتقل إلى الحوض حيث أغسل يدي ووجهي، بعد ذلك أجد الكسرة الساخنة التي تحضرها عمتي عندما تستيقظ مع الفجر، فنأكلها بالزبدة التي تستخرجها من الحليب الطازج ونشرب معها الحليب الذي تحلبه من الأبقار.

كنا نستيقظ من النوم على غناء الديوك وكثيرا من الأحيان كان أحد الطيور يحط على رأسي.

تغريد العصافير، وانشغال الأرانب بقضم أوراق السلطة، وانكباب الدجاج على نقر الحبوب، كل ذلك كان يجعلني أتوق إلى هذا المكان وأعشقه. قليل من البيوت كانت تبنى بالحجر ولكن أغلبها كان مبني بالطوب الذي عجنته أيدي النسوة من التراب الأصفر والقشر أما السطوح فكانت مصنوعة من القصب، وكان الماء يوضع في جرار كبيرة، وكذلك الزيت والسمن المالح، وفي الصيف كان يحتفظ بالماء البارد في جرار كبيرة مكسوة بنسيج القنب الذي يبلل بانتظام. إنها ثلاجة الريف.

سعدت أنا بالعيش في هذه الطبيعة البعيدة عن المدرسة والكتاب واجتياز الشوارع لإحضار ما تحتاجه أمي في البيت. إنني أمرح وأجري في هذا الفضاء اللامحدود والذي تعمره الحيوانات وتغمره الخضرة.

ما أسعدني ! إنني أتمرغ وسط العلف وأجري في الحقول، وكأنني أبحث عن شيء لا أعرفه. أمر بأشجار الزيتون وأحاول احتضانها بذراعي.

وفي المساء أسقط من التعب وأنام حتى الصباح حيث يوقظني الديك بغنائه.. وأعاود نهاري.. لكن الوقت كان يمر بسرعة..

ويوم الوداع شعرت بتمزق في أحشائي وبالكآبة تسيطر علينا. ها نحن سننزل إلى المدينة، حيث لن يتكلم أبي عن أشجار الزيتون ولا عن أرض أجداده. لقد انتهت حياة المرح والآن نعود إلى الواجبات اليومية..

مات أبي قبل الثورة بسنة ولم تعد لي فرصة التنقل إلى الريف. وفي يوم من سنة 1958 جاءنا نساء وأطفال أعمامنا فارين من الهجوم العسكري ولجأوا عندنا.

حكوا لنا أنهم أوقظوا فجأة من نومهم فوجدوا الجنود المظليين يقتحمون المنطقة ويفتشون الدور ويتلفون كل ما يقع بين أيديهم، ويخرجون الناس من بيوتهم بالضرب، ويفصلون الرجال عن النساء، ويوقفون الإخوان في صف واحد ثم يطلقون عليهم النار أمام أنظار عائلاتهم، فلم يبق للأحياء منهم إلا أن يفروا بقليل من الأمتعة بعد أن دفنوا موتاهم بسرعة. وهكذا زالت المزرعة واندثرت معها حياتهم.

أما أنا فإن ذكرياتي بقيت هناك ولم أحفظ منها إلا حنان أبي وحب الأرض الذي زرعه في نفسي.

Le croiseur « Montcalm » photographié dans les eaux philippevilloises.

Dispositif de sécurité nforcé à Philippeville

الفصل الثاني والعشرون

رست البارجة "مونكالم"، منذ عدة أيام في الميناء، وهي تشكل مفخرة للسكان الأوروبيين الذين يزورونها بانتظام. كنا مذهولين من تسليحها ومدافعها الموجهة إلى السماء ومن جنودها المكسوين ببدلات ناصعة البياض، وبقبعات يتمنى الجميع لمسها.
أما السكان المسلمون فهم يرون في هذه الزيارة مجرد تظاهرة للقوة، ولا يعيرونها أية أهمية لشدة ما اعتادوا عليه من هذه المظاهر، وأما المظليون فإنهم يمرون دائما في أفواج مسلحة إلى أقصى حد، وفي صحبتهم كلاب مكشرة عن أنيابها، وفي السماء نسمع ونرى في كل لحظة الطائرات الخفيفة وطائرات الهليكوبتر، إنه منظر عادي وهذه الباخرة الحربية جزء منه.
في البداية كانت هذه الزيارة حدثا كبيرا، ولكن مع مرور الوقت تعودنا على ذلك.
رسو هذه الباخرة الحربية هناك، كان لإمطار جبال القل المشهورة بالقنابل، لأنها معقل خطير وملجأ كبير للمجاهدين. فلا أحد يمكنه أن يلج هذه الجبال بمفرده، أو أن يمشي في طرقاتها المتعرجة الصاعدة، المحاطة بغابات كثيفة.
في ثانويتنا يوجد مبيت داخلي، ومن بين التلميذات هناك بنات ينتمين إلى هذه المنطقة، ولكنهن لا يقدرن مع الأسف على زيارة عائلاتهن بكل حرية، لأنهن مجبرات على التنقل بقافلات عسكرية واستلام رخصة مرور من السلطات.
منع الناس من حرية التجول، وطلب من كل شخص التوجه إلى مركز الشرطة ليخبر السلطات بنية السفر واستلام رخصة

التنقل منها. كما تحتم علينا أن نخبر السلطات بزيارة أوليائنا، ولكن الناس لا يمتثلون لهذا الأمر إلا قليلا.

لم تكن هذه البارجة عند البعض شيئا للفرجة. فهي في الواقع تشكل أكبر خطر على سكان المنطقة بأسرها.. إذ تقوم طيلة أيام وأسابيع بقصف الجبال دون توقف. مدافعها الموجهة ترسل أطنانا من القنابل نحو الجبال المحيطة، وبالتالي نحو المدنيين الساكنين فيها.. أما المجاهدون الذين شعروا بالخطر القادم من هذه الباخرة فقد تفرقوا، وبقي السكان وحدهم في مواجهة القنابل.. ولم يكفهم ذلك، بل اشترك الطيران في هذه العملية المدمرة بإلقاء قنابل "النبالم"، وهكذا انتشرت عمليات القتل بين المدنيين، وتهدمت أكواخهم وأحرقت أراضيهم، ولم يبق أمام الأحياء إلا الفرار إلى المدن عندما لا تجبرهم السلطات على البقاء في مراكز التجمع.

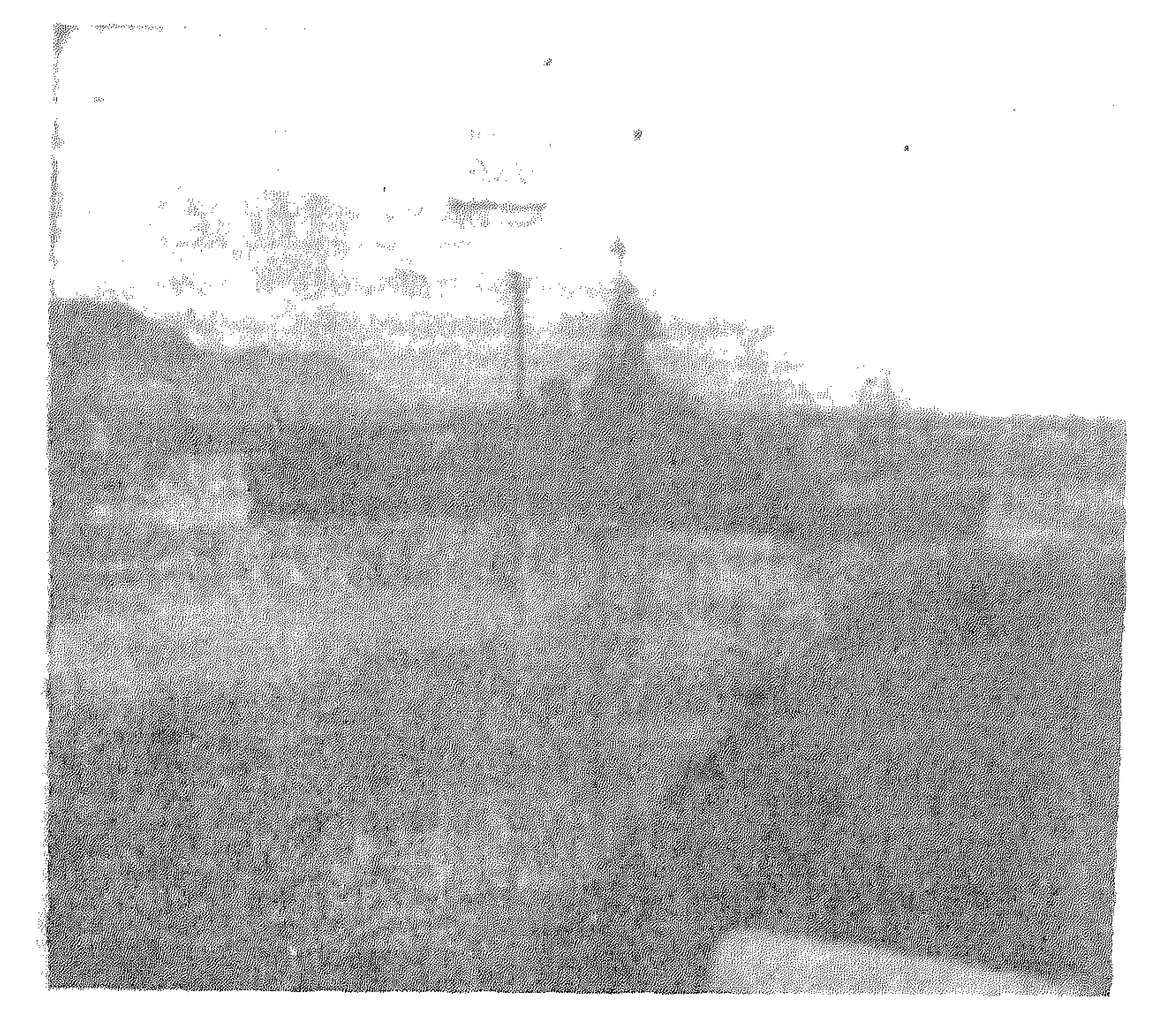
كثر هروب الرجال وخاصة النسوة والأطفال إلى المدن. كانوا عراة في غالبيتهم، وكانت جلودهم محروقة ومتشققة، تشتم رائحة الإحتراق من شعورهم وحواجبهم وحتى أجفانهم... بقيت هذه الرائحة في أنوفنا لمدة طويلة، وكان هؤلاء المساكين يجرون في كل مكان وأعينهم غائرة وأيديهم على عوراتهم.

ويسعى سكان المدينة إلى نجدتهم ومساعدتهم بكل الوسائل المتوفرة لديهم، وبين هذا وذاك يظل السكان متيقظين لأنهم يخشون ما يمكن أن ينالهم من الإعتداءات الوحشية للجنود الإستعماريين. وكان الأهالي هم من يتولى علاج الجرحى بزيت الزيتون أو الدواء الأحمر عندما يجدونه، أو يقدمون الملابس لأقلهم حروقا. وبصفة عامة يتوجه الضحايا إلى الحي العربي وكلهم رعبا

وخوفا من الوقوع في يد المستعمرين.

ولا ننسى إسطبل "سايفي" الكبير، الذي كان يأوي أولئك الضحايا وكان يموت فيه كثيرون منهم لفقدان العلاج، وبسبب قلة النظافة أيضا التي لا يمكن المرضى أن يجدوها إلى جانب الماشية.

Le remorqueur de haute mer « Intraitable » sera dans notre port durant le séjour du croiseur « Montcalm »



الفصل الثالث والعشرون

سطرت الحكومة الفرنسية برنامجا سياسيا لتهدئة الأوضاع. لقد فقد الأهالي صبرهم ولكنهم لم يفقدوا إيمانهم بالقضية! وهكذا وضعت فرنسا سياسة محكمة للسيطرة على الموقف.

فقد قسمت المدن إلى مربعات إدارية ووضعت الأهالي المهجرين داخل مراكز التجمع وتحت الرقابة الشديدة. وهكذا ظنت أنها تمكنت من قطع الصلة بين المجاهدين ومساعدة المدنيين. المساعدة المادية والمعنوية. خاصة وأنه كان يتعين على من يريد التنقل أن يحصل على رخصة التجول.

وتشكلت "لجان الإنقاذ العمومية". عين فيها جزائريون لاستلام مناصب صغيرة. ومن بين ما كلفت به تلك اللجان أن تقوم بعمل دعائي لنشر الأفكار الجديدة التي تهدف إلى التهدئة. والى فك الحصار الذي يعيش فيه المجتمع.

وفي يوم من الأيام ثارت ثائرة الحي إثر عملية همجية قام بها المستعمرون فجاءت السلطات بأعضاء من لجنة الإنقاذ العمومي لتهدئة الأجواء. ولكنهم صدوا على أعقابهم لما تلقوه من ضربات ب"البرم" والأواني المملوءة بالماء المغلي وبماء الجافيل.

يعرف أغلب الناس الآلية التي يتبعها أعضاء لجان التهدئة العمومية. إذ يدخلون البيوت بكل " تهذيب" ويعدون الناس بحياة أفضل. وبشكل مصطنع كما يتراءى للسكان.

ولكن لسوء حظهم لا يجدون من يفهم كلامهم. إذا تكلموا بالعربية الدارجة يتظاهر الناس أنهم بربر لا يفهمون ما يقولونه. وإذا تكلموا بالأمازيغية ادعوا عدم الفهم. وإن تكلموا بالفرنسية

فإن البلية أكثر فأكثر. وهكذا يضيع كلامهم بين الطرشان.
أضف إلى ذلك، فقد عمد الناس إلى طرق أخرى، فهم يتظاهرون بالهبل، والنساء يوسخن أجسادهن ووجوههن ويمزقن ثيابهن ليصرن قبيحات ومنفِّرات.
و الشيوخ يتظاهرون بالرعدة وآخرون بسيلان اللعاب وهكذا تصبح الدار شبيهة بمستشفى المجانين.

أمام كل هذه المأساة يتراجع أصدقاء الإستعمار ويعودون إلى أسيادهم فارغي الأيدي فاقدي الأمل.. مكبرات الصوت في كل ركن من أركان الشارع تذيع خطبا يقرأها بعض الحركية باللغة الدارجة.. وهي عبارة عن توصيات وأوامر إستعمارية تتخللها أغاني مشهورة.
كنا نستمتع بسماع أغنية أحمد وهبي عن زلزال مدينة الأصنام، هذه الأغنية الحزينة العذبة التي يؤديها صاحبها بصوته العميق الأخاذ، الذي يليق بالمناسبة الحزينة التي نعيشها.
أما الخطب فكانت تحرض الناس على الإبتعاد عن الثوار فتوصيهم بالتبليغ عنهم لأنهم قطاع طرق.. ويضيف ذلك الخطاب الفرنسيون من "دانكارك" إلى تمنراست" .. " إذا أخبرتموا عن هؤلاء السفلة فإن فرنسا ستكون معترفة لكم بالجميل إلى أبد الآبدين، فلا تسمعوهم لا تتبعوهم ..".
إنها مجموعة من المهاترات تلك التي تذيعها مكبرات الصوت من الصباح إلى آخر المساء بحيث لمَ يعد أحد ينتبه لها، وصارت جزءا من الحياة اليومية ومن الأجواء العادية.

الفصل الرابع والعشرون

لقد بلغ إعجاب الناس بالمجاهدين حدا انتشرت معه أكثر الحكايات غرابة، فانتقلت من المدن إلى القرى ومن الدواوير إلى "المشاتي" ومن بيت إلى بيت.

وصار الخيال بلا حدود، وأصبحت الحكايات مدهشة يغلب فيها الخارق على الواقع وتحول المجاهدون في أخيلة الناس إلى ملائكة أو مبعوثين من الله.. وأصبحوا مخلوقات فوق العادة، يغيبون ويظهرون في أماكن مختلفة لأنهم محميين من الله.

وصلت هذه الحكايات إلى أقصى الحدود وصارت تحكى في خشوع إلهي.. الجيران ينصتون إلى هذه الحكايات بأفواه مفتوحة ونفوس سيطرت عليها متعة عميقة وإحساس بالارتفاع إلى أعلى الدرجات.. وانسجمت، بلا شك، هذه الوطنية الدينية مع التفكير الذي كان سائدا في ذلك الوقت.

معلوم أن الجهل كان مسيطرا على الناس وأن كل ماله علاقة بالغرابة والدين كان مقدسا، وأدركت مصالح الدعاية الإستعمارية هذا الأمر، فأخذت تبحث عن الطرق التي تؤدي إلى كسر هذا الإعجاب وهذه الوحدة الروحية وهذا الإرتباط بالقضية الثورية فالتجأت إلى استعمال الحيل، وتناهى إليها أن "طالبا" (معلم القرآن) كان مشهوراً في المنطقة، بلغت شهرته إلى أبعد من حدود المنطقة،وأصبح يتمتع بسمعة طيبة له قدرة على التأثير على أتباعه الكثيرين الذين يزورونه ويسمعون إليه.. إنه صاحب المعجزات، شاف من الأمراض وساحر، وبصفة عامة يملك كل القدرات ويمكنه أن يخدع أياً كان..

فوجدت فيه وسائل الدعاية الإستعمارية الرجل المناسب لخدمة أغراضها، واتفقت معه على سيناريو مدهش.

كان على هذا "الساحر الكبير" أن يقنع الناس بأنه يملك قدرة سحرية فائقة تمكنه من أن يفعل بهم ما يشاء، وبدأ ينشر دعايته بإرسال دعاته إلى المقاهي والحمامات، وبدأ يخاطب الناس وينادي فيهم بأنه قادر على توقيف القطار وهو يجري بأقصى سرعة. وسعى إلى إقناع الناس بأن قدراته الفائقة لا حدود لها.. فأصبح كثير من الناس يؤمنون به.

وفي اليوم المعلوم بدأ يتجمع حوله كثير من الناس في مكان تخترقه السكة الحديدية، وهو مكان حدده مسبقا مع السلطات الساهرة على العملية، توقف جميعهم في ذلك المكان وأخذوا ينتظرون في صمت رهيب ظهور القطار المسرع.. وفي ذلك الوقت بالذات رفع صاحبنا عصاه الكبيرة وأعلن بكل جدية وحزم: "بفضل القدرات التي أراد الله أن يمنحني إياها أن آمر هذا القطار بالتوقف حالا".

وبالفعل بدأت الفرامل تطلق أزيزا وصوتا يصم الآذان مع سحابة من الشرارات النارية، وأخذت سرعته تنخفض لتتوقف أمامه نهائيا في جلبة عارمة، وهنا ظهر على مرافقيه الذهول أمام هذا المنظر الذي لم يصدقوه.

أما هو فقد ألقى عليهم نظرة ملؤها العجب والكبرياء تنم عن اقتناعه بقوته، ثم استغل الذهول الذي ظهر عليهم وأمرهم بالسير وراءه.. وهكذا انطلق الجميع في الإحتفال بالحدث بالركوع له وتقبيل يديه وأطراف برنسه حتى قدميه.

أما هو فقد وقف ينظر إليهم من فوق بكبرياء وعزة نفس وهو يقول:" ألم تروا ما أنا قادر على فعله، إذن إسمعوني واتبعوا الطريق الذي أرسمه لكم، عندئذ ستجازون وتصيرون أغنياء وسعداء. إن فرنسا تحمينا من شرور قطاع الطرق ومن "الفلاقة".. إنها أمنا جميعا ونحن أولادها، فلا تتيهوا يا إخواني.".

ثم رفع أطراف لباسه الواسع بذراعيه في حركة تدل على الحماية التي يمنحها للناس وأخذ يباركهم وكأنه إبراهيم وسط المؤمنين به لقد نجحت العملية التي دبرتها السلطات الفرنسية.

ولكن النجاح لم يدم طويلا فقد أفاق أغلب الناس من الخزعبلات وانفضوا من حوله..

منظر على الميناء

الفصل الخامس والعشرون

لقد حدد المجاهدون بعض المحظورات للناس ليضموا تأييدهم للقضية.. فقد منعوا كل جزائري من شرب الخمر والتدخين.. إنه أمر عام لا يمكن التلاعب به. وبالفعل فقد احترمته الأغلبية الساحقة اقتناعا أو خوفا من العقوبة.

ونظرا إلى أنه ليس من السهل على المدمن على الخمر أن يتوقف في الحال عن الشرب. ونظرا إلى أنه يمنع في تقاليدنا أن يدخل أحد الخمر إلى منزله. فإنه كان لا بد من إيجاد بعض الحيل للحصول على الخمر.

ومن جملة هذه الحيل تناول الكحول في فنجان القهوة. فتسمع مثلا أحدهم يطلب من الخادم إحضار قهوة قوية جدا. وعندئذ تحضر القهوة في كاس كبير تشم منه رائحة الخمر عوضا عن نكهة البن.

وتسمع شخصا آخر يطلب كأسا كبيرا من مشروب القازوز. ولكن الناس لا ينخدعون.. وهكذا يستمر المدمنون في سكرهم ونفس الشيء بالنسبة للسيجارة. وإن كان من السهل على الناس أن يدخنوا في بيوتهم. ومع ذلك. كان كل من يتجرأ على التدخين في الخارج يعرض نفسه للعقوبة.. إنه مشكل يتعلق بالكرامة والشرف. وتشير الشائعات إلى أن الأشخاص الذين لا يحترمون القضية يتعرضون لـ"النيف" أي لقطع أنوفهم.

الفصل السادس والعشرون

أنشئ في الحي نظام لدعم المقاومة وكان يتطلب توزيع المهمات والمساعدات تطبيقا للنظام الخاص الذي يقوم السكان فيه بتقسيم الاشتراكات والهبات، ونقوم نحن بتوصيلها إلى محطات أخرى تتكفل بإرسالها إلى المقاومة في الجبال. ومن بين هذه الهدايا توجد الأحذية المصنوعة من المطاط وهي مطلوبة كثيرا وقليلة جدا، ولكننا كنا نحصل عليها بفضل تعاون المناضلين في الحي ولكن بصعوبة.

أما أنا فمهمتي، كانت بالإضافة إلى عمل السكرتارية، تتعلق بجمع المال خاصة عند النساء، والقيام أحيانا بمرافقة الطيب، الذي كان يشكل نقطة الإتصال، للتنقل إلى القرى القريبة من المدينة، وكان معي سجل أكتب فيه كل شيء، فقد يصلح في يوم من الأيام لحمايتي مع الثورة.

منذ هذا الصباح أنتظر الطيب الذي يشتغل في مستشفى المدينة كعامل اتصالات. ولم يحضر حتى هذه الساعة وبدأت اشعر بالحيرة من هذا التأخير، فهو لم يتعود على نسيان مواعيده.. لم أكن أريد أن أتصور السوء بسبب تأخره، بل كنت أحاول أن أهدئ نفسي بإيجاد كل الأعذار له.

هل هو مريض أم تعرض لحادث ؟ لا أريد أن أتصور أنه أوقف من طرف البوليس، فالتعذيب في هذه الحال يبلغ درجات عالية من العنف والقساوة، فما يجعلنا نتوقع الإقرار بكل ما يريده الجلادون، قد يؤدي بنا أحياناً إلى الاختفاء.

لم أعد أصبر على هذا الموقف. لكن وبعد طول انتظار قررت أن أتوجه إلى المستشفى لعلي أعثر على أخباره. وهناك فهمت من زملائه أنه أوقف.

وعندئذ خرجت من المستشفى وأنا أرتعش من الخوف. وسارعت إلى المنزل بوجه شاحب. واستقبلتني أمي وقد فهمت الوضع بسرعة. كنت أتوقع أن يأتي العسكر لتوقيفي، وبدأ الشعور بالتهديد لا يفارقني، وكأن سيف "ديموقليس" مسلط علي.

سارعت أمي إلى إعداد حقيبة صغيرة بأقل المستلزمات وقررنا أن أرحل غدا صباحا إلى بني عمومتي الذين يقطنون في حي الأمل. وهو حي يوجد به تجمع كبير من الجزائريين لأنه بني لإيواء المتضررين من الفيضانات. كما يتضمن أعداداً كبيرة من الأكواخ التي أوجدها المنكوبون النازحون من المناطق الجبلية المجاورة. وهكذا رأينا أن هذا المكان هو الأحسن للاختباء والتواري عن الأنظار.

وفي تلك الليلة وعند الساعة الثانية عشر توقفت أمام بابنا سيارة لا نعرفها. وكنت نائمة بملابسي، فاستيقظت في الحال. وكانت إلى جانبي الحقيبة الجاهزة. ودّعت أمي وأختي ووقفت أنتظر توقيفي

.

في ذلك الوقت سمعنا أصوات البكاء والعويل. وتبين أن السيارة تنقل إلى جيراننا جثة أخيهم الذي كان مريضا في المستشفى بمرض الطحال.

ومع ذلك بقينا ننتظر الأخبار لنطمئن. ولم نتنفس الصعداء حتى غادرت سيارة الإسعاف بابنا. وقالت لي أمي التي كانت ترتعش:"ستغادرين غدا عند الفجر وتذهبين إلى إبن عمك سليمان دون أدنى تأخير. والله يحميك".

وبقينا ساهرات من شدة الخوف، ووفاة الجار حتى مطلع الفجر، حيث ذهبت لأختبئ في الحي الآخر، ولحسن الحظ كنا في زمن العطلة، وبذلك تمكنت من الغياب عن بيتنا دون أن يشعر بي الجيران أو يظنون بي الظنون.

كانت أمي وأختي تقومان بزيارتي في مخبئي ولم يحدث لهما أي طارئ، مما يدل على أن الشاب لم يبح بأي سر للشرطة، وهكذا انتهت صلتي بالثوار.

أعلن وقف إطلاق النار، وبدأ الثوار ينزلون من الجبال إلى المدينة، وبدأنا نشعر بالإطمئنان يدب في أنفسنا، رغم ما يدور في المدينة من شائعات حول نشاط المنظمة السرية الإستعمارية، وكان من جملة الدعايات أن الجزائريين سيتعرضون لتسميم ماء الشرب الذي يجري في القنوات، وأننا سنقتل جميعاً ولن ننعم بالعيش في جزائر مستقلة..

ورغم ذلك دخل المجاهدون إلى الحي، ونقلت السجل الذي كان يحوي كل النشاطات إلى "مولود الأحرش" وهو مسؤول الحي تحت قيادة سعيد مدور أحد قادة المنطقة من الولاية الثانية.

وبدأت السلطات الثورية في إحصاء سكان الحي وشكلت لذلك أفواجا متنقلة كنت ضمنها، وكان الغرض من ذلك هو الإعداد للاستفتاء الذي سيقرر الاستقلال.

إنه العرس الكبير الذي سيجري يوم الثلاثاء، الثالث من شهر جويلية عام 1962، إحتفالات تفوق الوصف، الناس يغنون ويرقصون ليلا ونهارا للتعبير عن فرحتهم بالاستقلال..

الأعلام المطرزة والمخاطة سراً أثناء الثورة بدأت تظهر. وبدأ الناس يتسابقون إلى إخراج العلم الأكبر والأحسن والأكثر تطريزا في ذلك اليوم.

وتحدد يوم 5 جويلية لدخول المقاومين الرسمين. فكان الشعب في انتظارهم عند منتصف الليل ليحتفل بقدومهم في جو من البهجة والحبور.

وعند الساعة التاسعة ليلا انتشر الناس في الشوارع وكثر الضجيج.. وعلت الزغاريد في كل مكان، واصطف الناس وهم يسيرون نحو منطقة الأقواس، وميدان ماركي. وانطلقت مجموعات كثيفة من المستقبلين لتحية المجاهدين.

كانت إحدى جاراتنا إمرأة مريضة تعالج من مرض الأعصاب تأخذ كثيرا من الأدوية حتى تنام. في تلك الليلة توسلت إلى أبنائها ليخرجوها معهم حتى ترى الحدث المنتظر. وفعلا ورغم حالتها وعينيها المثقلتين بالنعاس، فقد حملها أبناؤها على كرسي وأنزلوها السلم وهي تصيح " تحيا الجزائر". وشاركها أبناؤها في الصياح: تحيا الجزائر".

أقيم احتفال عيد الشباب والطلبة في هلنسكي"عاصمة فنلندا" من تاريخ 28 جويلية إلى 6 أوت. وشاركت فيه الجزائر وبعثت بوفد يمثل كافة ولايات البلاد. وقد تم اختياري إلى جانب "كمال" من قبل " سي السعيد مدور". و"حربي نور الدين" المسمى "عليوات" لتمثيل الولاية الثانية..

في هذا العيد.

كانت الرحلة أسطورية وبدأت المغامرة الكبرى من مرسيليا. هناك تكفلت بنا فدرالية فرنسا لجبهة التحرير. واتخذت إجراءات لحمايتنا من اعتداءات المنظمة السرية الإستعمارية. ووضع قطار خاص تحت تصرف الوفد الجزائري بكامل أعضائه. إضافة إلى بعض الوفود الإفريقية.

بدأنا الرحلة من"فنتميليا" على الحدود الايطالية الفرنسية. وعبرنا إيطاليا الشمالية بدون توقف. وكانت المناظر بهيجة تكاد تكون مألوفة والقطار يجانب شواطئ جميلة جدا لقد كانت لوحة جميلة بألوانها الزاهية وروائحها الزكية.

ثم دخلنا النمسا وشاهدنا قصور فيينا الجميلة وتخيلنا قصصها العجيبة، رقص الفالس وموسيقا شتراوس، وما توحي به من ذكريات رائعة.

توقفنا قليلا فأعجبنا بالقصور الفخمة وتخيلنا الراقصين الذين يترنحون تحت الأضواء الساطعة.

لقد كانت هذه الرحلة بالنسبة لي هدية رائعة، ولم أكن أريد أن أفقد أية صورة من المناظر التي مرت أمام عيني والتي اكتشفها بغبطة ونهم.

وصلنا إلى بولونيا. كم هي تعيسة بأراضيها الرمادية اللون. ولكن لحسن الحظ زالت عن أعيننا تلك المناظر عندما ظهرت عند وصولنا شابات جميلات بلباسهن التقليدي وألوانهن الزاهية. وعندما توقف القطار، صعدن فقدمن لنا عصير الطماطم، وهي أول مرة أشرب فيها هذا العصير الذي كنت أكرهه. ولكني أحببته الآن كثيراً..

القطار كان مريحا وخاصة وأنه كان بصحبتنا جوق موسيقي أتحفنا بأعذب الألحان.. كان السفر طويلا ولكننا كنا نفاجأ في كل مرة بعد يقظتنا بمناظر جميلة.. في هذا الصباح وصلنا إلى روسيا وفوجئنا بمنظر جميل، لقد كان في استقبال الوفود المسافرة جنود مصطفين بلباسهم العسكري الجميل ووقفتهم المستقيمة، وما زاد من فرحتنا، أنهم سمحوا لنا بأخذ صورة تذكارية معهم جانبهم.

ومن موسكو أسرع القطار بنا إلى لينيغراد، فأدهشتنا القصور والمباني التي أقامها قياصرة روسيا من "إيفان" الرهيب إلى "كاترين" العظيمة إلى "راسبوتين" إلى "تولستوي" وخاصة آثار ثورة أكتوبر.

هناك لمسنا ما معنى المساواة الإجتماعية وما معنى الحركات التقدمية. كل هذا زاد في تعلقنا بالنظريات المثالية وبالحماس الأخاذ الذي جعلني أشعر بالإعجاب بهذا البلد.

والآن ها هو اليوم العظيم، فقد كان يتعين علينا أن نقوم باستعراض في الملعب الكبير.. كنا كثراً وكان على الكل المشاركة في الاستعراض، كنا بألبستنا التقليدية في هذه المناسبة، ومشينا وراء علمنا الكبير، وكانت التصفيقات الحارة تدوي عند مرورنا، والناس يصيحون باسم الجزائر.. هنا فهمنا كم هي كبيرة سمعة ثورتنا، لكن العودة إلى الديار كانت أقل حماساً.

عند عودتنا إلى الجزائر استقبلنا استقبال الأبطال فقد كنا أول ممثلي الجزائر المستقلة.. إنها أول مظاهرة دولية تمثل فيها الشبيبة بلادها كدولة ذات سيادة.

مازالت ترن في أذني أنشودة عيد الشباب:" نريد أن نزيل الخوف والكراهية إلى الأبد و بغير رجعة ".

لقد جعلني ما عشته في هذا العيد، وفي هذه الرحلة أشعر بحماس كبير وإرادة قوية في الدفاع عن المضطهدين..

بهذه الروح الوثابة ألقيت خطابا في المسرح البلدي لمدينتنا دفع بالبعض إلى البكاء من شدة التأثر. فقد حدثت الحاضرين عن الإستقبال الحار الذي لقيناه هناك وعن سمعة الجزائر الغالية مما جعلهم يتحمسون ويصفقون بقوة بالغة.

لقد عشنا معاناة قاسية وبدأنا الآن نحلم بحياة أسعد بكل ما تحمله كلمة السعادة.

الفهـــرس



الكاتبة فطيمة سعدي

فطيمة سعدي طبيبة ممارسة، منتخبة محلية ممارسة، ومناضلة في المجتمع المدني نشيطة وممارسة أيضا.

نالت جائزة الإمتياز في مسابقة القصة، باللغة الفرنسية، سنة 2003 حول موضوع " الإختلاف "، في مسابقة القصة التي نظمتها جمعية المرأة في اتصال سنويا بالتعاون مع فوروم نساء المتوسط بمارسيليا .

نشرت لها دار أنوثة للنشر، سنة 2003 بمناسبة سنة الجزائر في فرنسا، روايتها « L'Innocence confisquée ». في جعبتها الأدبية كثير من المشاريع نتمنى أن تنجح في تحقيقها.





ISBN : 9961-9555-1-X

